مملكة ماري السورية (٣)

مملكة ماري في عصر الفاعلية الأكادية التاريخية 2350 . 2160 ق.م

د.بشار محمد خليف
باحث في تاريخ العالم العربي
دمشق — الجمهورية العربية السورية
Khleif200@hotmail.com

ثمة نقاط عديدة تشكّل قاعدة للبحث في هذه الفترة:

أولاً: أن الفاعلية الأكادية الديمغرافية والتي تعود في ظهورها إلى الألف الرابع قبل الميلاد ، شكّلت مدينة كيش الرافدية بؤرتها الأساسية.

ثانياً: أن هذه الفاعلية امتلكت أدوات التفاعل الديمغرافي الاقتصادي والروحي مع الفاعلية السومرية واستطاعت أن تجبّ المنجز السومري وتأخذه إلى آفاق تطورية جديدة اطراداً مع الزمن.

ثالثاً: أن الفاعلية الأكادية والهوية الأكادية تشكّل القاعدة الأساسية التي تمت صياغة المشرق العربي عليها وصولاً إلى العصر الحاضر ، وذلك مروراً بالفاعليات العمورية والكنعانية والآرامية والعربية.

رابعاً: كنا أشرنا إلى أن طبيعة التفاعل الأكادي . السومري والامتزاج والتعايش كان مثلاً يُحتذى به ، وهذا ما استمر في مختلف الفاعليات الأخرى بما يعطي دلالة على أن خاصية التمازج والتفاعل والانفتاح هي خاصية من طبيعة الشخصية المشرقية العربية عبر تاريخها.

خامساً: إن صعود الفاعلية الأكادية من مدينة كيش في حوالي 2350 ق.م كان تطوراً طبيعياً في مساق اكتمال هذه الفاعلية لإظهار حيويتها التاريخية في زمنها ، فهي لم تقم لنقض التواجد السومري وتدمير منجزه بقدر ما كانت تعبيراً عن التطور المتبدّي في حركة مجتمعات مدن المشرق العربي.

وعلى ذلك نفهم أن الفاعلية الأكادية ورثت الفاعلية السومرية وجبّتها وأضافت عليها وطوّرتها ضمن خط ذهني حضاري واحد مع الإشارة إلى أن التواجد السومري الديمغرافي لم يختفِ بل استمر متفاعلاً بيد أنه أفسح المجال للأكاديين كي يسهموا في حضارة المشرق العربي والحضارة الإنسانية بعامة.

سادساً: يبدو أن خط الوعي الاتحادي لدى الفاعلية الأكادية تجاوز ما كان قام به لوغال زاجيزي قبل حوالي مئة وخمسين عاماً ، فإن كان هذا قد سعى إلى توحيد مدن المشرق آنذاك كاستجابة لمقتضيات دورة الحياة السياسية . الاقتصادية الاجتماعية الروحية الواحدة ، فإن شاروكين الأكادي امتلك أدوات التوحيد عبر ما يبدو لحظة وعي فرضها الظرف التاريخي آنذاك بما تحمله الفاعلية الأكادية من إشراطات ثقافية واقتصادية وروحية متطورة.

فمع مجيء شاروكين الأكادي الذي استطاع أن يرث ما وصل إليه منجز زاجيزي ، مع ملاحظة أن الواقع الاجتماعي التاريخي المديني لمدن المشرق العربي في عصر الفاعلية الأكادية كان أضعف من عوامل القوة العسكرية الأكادية لهذا لم يستطع استيعابه وهذا ما أدى بالإمبراطورية الأكادية إلى الاضمحلال فإن كانت وثائق زاجيزي تتغنى بأنه: "من البحر الأدنى / الخليج العربي / وعلى طول دجلة والفرات ، وحتى البحر الأعلى / المتوسط / جعل الإله انليل كل البلاد تذهب إليه".[31] فإن شاروكين استطاع أن يرث هذا ويضيف عليه ، كون أن ثمة مبالغة في مقولة زاجيزي لجهة سيطرته الكاملة على المشرق العربي.

بدأت مسيرة شاروكين بأن استلم السلطة في مدينة كيش في حوالي 2350 ق.م ، وبعد حوالي 34 حملة عسكرية بينه وبين زاجيزي ، استطاع أن يسيطر على تلك الدولة فضّم إلى سلطته مدن أوروك . أوما . أور . لاجاش ، ومضى في إنشاء عاصمته أكاد وسط الرافدين / إلى الآن لم يعثر عليها / والتي أضحى مينائها مركزاً تجارياً مهماً وصل بفاعليته التجارية إلى سواحل الهند/ ملوخا / حسب الوثائق.

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
بشار محمد خليف ، مملكة ماري السورية: مملكة ماري في عصر الفاعلية الأكادية التاريخية.- دورية كان التاريخية.- العدد التاسع ؛ سبتمبر ٢٠١٠. ص ٦٥ — ٧٨.
(www.historicalkan.co.nr)

كما أنه اتجه بجيشه الذي يقدّر بحوالي 5400 جندي نحو الجناح الشامي حيث جاء في وثائقه: "شاروكين الملك خرّ خاشعاً في توتول أمام الإله دجن وصلّى. الأرض العليا أعطاه إياها دجن: ماري. يرموتي. إبلا، وحتى غابة الأرز / جبال الأمانوس / وجبال الفضة / طوروس /".[32]

وبدوره يشير المؤرخ سيتون لويد إلى أنه " تمَّ تأكيد ادعاءات شاروكين بأنه عَبَر البحر المتوسط في الغرب ليصل إلى قبرص وجزيرة كريت "⊗. وقد أطلق شاروكين على نفسه لقب " ملك الجهات الأربع " ومقصده في ذلك: "مملكة عمورو في الغرب، وسوبارتو في الشمال، وسومر وأكاد في الجنوب، وعيلام في الشرق ".

وتشير الأبحاث إلى أن امبراطورية شاروكين شملت منطقة الخليج العربي والجناح الرافدي ومعظم مناطق بلاد الشام الشمالية⊗⊗. وتشير الوثائق إلى أن حملة شاروكين على الأناضول كانت بسبب تعرّض تجار أكاديين هناك لمضايقات من قبل حاكم مدينة " بورشاندا " فذهب لنجدتهم. وثمة وثيقة تعود لشاروكين تشير إلى أنه " خاض أربع وثلاثون معركة وانتصر فيها ودمّر أسواراً حتى شاطئ البحر، وجعل سفناً من " ملوخا" / سواحل الهند الغربية / ومن ماجان / عُمان / وسفناً من الديلمون / البحرين / ترسو في ميناء أكاد "[33]

وتنبغي الإشارة هنا، إلى أن نواة الامبراطورية الأكادية، كانت تشمل القسم الأوسط من بلاد الرافدين من نيبور في الشمال وحتى خط هيت. سامراء بما فيها منطقة ديالى. وكذلك تنبغي الإشارة إلى أن العلاقات بين كيش وإبلا تعود إلى ما قبل صعود الفاعلية الأكادية حيث نجد أن ثمة دورة حياة واحدة بين كيش وإبلا وماري وموقع أبو صلابيخ.

وقد استطاع شاروكين من أن يضمّ إبلا وماري إلى امبراطوريته. ويشير هورست كلينغل إلى أن ثمة نصاً يعود إلى الألف الأول قبل الميلاد، يذكر أن جميع البلدان الواقعة بين الخليج العربي والديلمون وماجان من ناحية، وكبتارا (كريت) وأنكو (قبرص) من ناحية أخرى، خضعت لشاروكين الأكادي ثلاث مرات ".[34] وبدوره انطون مورتقات يشير إلى أن امبراطورية شاروكين لم تتحقق بصورة فعلية إلا بعد احتلاله لبلدان العموريين في الجناح الغربي الشامي.[35] وقد استمر حكم شاروكين حوالي 60 عاماً، أمكنه من خلاله تأمين استقرار سياسي. اقتصادي. اجتماعي، ساهم في توطيد أركان الامبراطورية الأكادية، ما أدى إلى اصطباغ المشرق العربي برمته بالطابع الحضاري الثقافي الأكادي والذي استمر حتى الألف الأول قبل الميلاد وبقيت تأثيراته إلى أيامنا الحاضرة.

الواقع التجاري في المشرق العربي في عصر الفاعلية الأكادية

لا ينفصل الواقع والنشاط التجاري في فترة الفاعلية الأكادية عما قبله إلا بوجود استمرارية للخطوط التجارية السابقة مع نشوء طرق جديدة ولا سيما إنشاء مدينة أكاد بمينائها. ويبدو أن خطوط التجارة المشرقية نحو آسية / افغانستان. باكستان. الهند / استمرت مع وجود دور جديد لميناء مدينة أكاد.

ونستطيع أن نقارب النشاط التجاري آنذاك على أنه شهد ازدهاراً مشهوداً طالما تأمّن الاستقرار السياسي والأمني الذي وفرته الفاعلية الأكادية ولا سيما في عصر شاروكين وحفيده نارام سن.

وتشير الوثائق إلى أن القوافل التجارية أصبحت تتجه من آسيا الصغرى نحو الخليج العربي عبر طرق التجارة المشرقية تحت حماية فصائل الجيش الأكادي، وإن كان ثمة خطورة على القوافل فيجب ألا ننسى دور القبائل والعشائر التي كانت تجوب المشرق العربي والتي كان جزء منها يعتمد على سلب القوافل ونهبها. كما تشير الوثائق أيضاً إلى أن السفن القادمة من ملوخا وماجان والديلمون أصبحت ترسو في ميناء أكاد، ويشير الباحث بوهارد برينتس إلى أن ثمة إشارات كثيرة في المدن الأكادية تدّل على وجود مترجمين عرفوا لغة ملوخا، وقد قدمت تلك الوثائق معلومات عن استيراد الأرز والقطن وخرز الصود المزخرف من الهند. مع الإشارة إلى أنه في هذه الفترة نشهد انحساراً أو تراجعاً لدور المعبد في الشأن الاقتصادي، وأصبح للسلطة الزمنية الدور الأول في قيادة الدولة في كافة المجالات عدا الاعتقادية.

مملكة ماري في عصر الفاعلية الأكادية

نتيجة الازدهار التي وصلت إليه مدينة ماري مع منتصف الألف الثالث، ثم استطاعتها إعادة ترميم ما دمّره هجوم لوغال زاجيزي وبسرعة قياسية تدل على معطيات قوة واقتدار إن في المستوى السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي والروحي، فإن معالم تلك الفترة تتوضح في أن مدينة ماري أصبحت عاصمة لمملكة تعجّ بالبلدات والمدن التي تتبع فعاليتها.

ويبدوا أن المستوطنات توزعت بكثافة حولها بحيث لا يكاد يفصل الواحدة عن الأخرى مسافة 10 كيلومترات⊗. وهذا ما يؤكده برينتس بقوله " أنه في أواسط الألف الثالث، انتشر العديد من المدن. الدول، التي تكونت عادة من مدينة واحدة محاطة بعدد من القرى "⊗⊗ ففي منتصف الألف الثالث قبل الميلاد، تبدو منطقة الجزيرة السورية مزدهرة بالمستوطنات والقرى، لا بل أن بعض هذه القرى أصبح مدناً ذات شأن مثل تل ليلان. تل براك. تل موزان. الخويرة، ولعل وجود مثل هذه المدن القوية في الشمال هو الذي دفع بالملك الأكادي نارام سن إلى الاستقرار في تل براك حيث بنى قصراً يشبه القلاع العسكرية الحصينة ".⊗⊗⊗

⊗ انظر سيتون لويد. آثار بلاد الرافدين. ت. محمد طلب. دار دمشق. ١٩٨٩

⊗⊗ هذا ما يشير إليه الدكتور علي أبو عساف في حين أن د. عيد مرعي يشير أن تلك الامبراطورية شملت كل بلاد الرافدين وسورية.

انظر. د. عيد مرعي. تاريخ بلاد الراقدين. دار الأبجدية. دمشق 1991. وكذلك د. علي أبو عساف. آثار الممالك القديمة في سورية وكذلك مؤلفه: فنون الممالك القديمة في سورية.

⊗ انظر ألفرد هالدار. العموريون. ت. شوقي شعث. دار الأبجدية 1993 دمشق.

⊗⊗ انظر بوهارد برينتس. نشوء الحضارات القديمة. ت. جبرائيل كباس. دار الأبجدية. دمشق 1989.

⊗⊗⊗ انظر حميدو حمادة. تل ليلان. دراسات تاريخية عدد 37. 38. 1990.

ونحن نعتقد أنه وللأسباب ذاتها أنشأ شمشي أدد عاصمته الثانية في شوباط انليل في تل ليلان في الألف الثاني قبل الميلاد.

وسط كل هذا ، كان على مملكة ماري مع امتداد الفاعلية الأكادية إليها وإلى إبلا ، أن تختار بين أن تواجه المدّ الأكادي أو أن تميل قليلاً وتتفاعل مع المدّ الجديد خصوصاً أن هذا المدّ ليس غريباً عنها أولاً وثانياً فإن ما استطاعه شاروكين الأكادي من خلق دولة مركزية ذات بنية واضحة وصارمة ، لم تكن تحتمل أنصاف الحلول ، لهذا استطاعت سلطة ماري أن تواكب الفعل الأكادي محافظة على استقرارها وازدهارها ومستفيدة في الوقت نفسه من طوق الأمان الذي سببته الفاعلية الأكادية.

ومقابل هذا ، تراجع نفوذ ماري عن مملكتها في منطقة الفرات الأوسط لصالح الفاعلية الأكادية ، وفقدت استقلالها المديني لصالح الفاعلية الأكادية الاتحادية المسلحة. وعبر هذا ، " استطاع حكام ماري في هذه الفترة أن يعيدوا تنظيم وبناء المدينة جزئياً لحساب الملوك الأكاديين ومن ثم لحسابهم الخاص وحافظوا على البنية المعمارية التي تعود إلى أواسط الألف الثالث قبل الميلاد ، وهي البنية التي ورثوها"[1] وسوف يستمر فقدان ماري لاستقلالها السياسي / وهذا ضمن منطق الوعي المديني الذي كان سائداً / حتى انتهاء الفاعلية الأكادية بحيث ستعاود عند ذاك إلى استعادة سيطرتها على منطقة الفرات الأوسط ، خزانها الحيوي للبقاء بالإضافة إلى الفرات.

وبعد موت شاروكين ، لم تعد فاعلية الدولة الأكادية كما كانت عليه ، بل تراجعت حتى زمن حفيده نارام سن 2260 . 2232 ق.م ، حيث ستعاود الفاعلية الأكادية فعلها ، وحفلت فترة حكم نارام سن البالغة حوالي 37 عاماً بتمردات وثورات ضد الدولة استطاع إخمادها سواء في مدينة كيش أو أوما ، نيبور ، أوروك ، بلاد ماجان ، بلاد عيلام ، نامار ، أبيشال وزاغروس ، بالإضافة إلى ماري أيضاً. كما أن نارام سن وصل إلى الأمانوس وجبال الفضة ودمّر إبلا ، ويبدو أن هذا كان نتيجة المزاحمة الاقتصادية .التجارية للفاعلية الإبلية القوية ، للفاعلية الاقتصادية التجارية للدولة الأكادية.

وتتباهى وثائق نارام سن بأنه " أول من قضى على إبلا ولم يسبقه أحد في هذا العمل منذ الخليقة ". أما تدمير بلاد ماجان / عُمان / فتشير المعطيات إلى أن حاجة الجناح الرافدي لأحجار الديوريت اللازمة لصنع التماثيل كانت تتأمن من هناك والذي يبدو أن ثمة سبباً دفع نارام سن لتدمير ماجان ربما لاحتكارها استيراد هذه المادة المهمة. وتشير الوثائق أيضاً إلى أنه في فترة حكم نارام سن كلّف هذا الملك ابنتيه بوظائف دينية في مدينة ماري فكانت شوماشاني وأختها مكيبار كاهنتان / قدشتو / في معبد شمش.

وبعد وفاة نارام سن في حوالي 2232 ق.م ، تدهورت أوضاع الامبراطورية الأكادية ووهنت ، ما أدى إلى هجوم قبائل الكوتيين القادمين من جبل ايران ، حيث سيطروا على الجناح الرافدي ولا سيما شماله لحوالي مئة سنة ، وتندر المعطيات المعمارية والكتابية التي يمكن أن يتركوها ، ما يعني أن فاعليتهم الحضارية هامشية وعلى مرتبة أدنى من الفعالية الأكادية.

ومقابل ذلك ، بقي الجنوب الرافدي بعيداً عن هذه الهجمات ، بما سيؤدي لاحقاً لانبعاث جديد من هناك مدعوماً من العموريين الكنعانيين ، وكان أساس هذا الانبعاث إعادة تأسيس مدن قديمة مثل أوروك ولاجاش وأور ، وكذلك تأسيس ممالك جديدة. بالإضافة إلى ذلك فقد استطاع الكنعانيون من تأسيس سلالات حاكمة في مدينتي اسين ولارسا الرافديتين ، حيث أدى ذلك إلى سيطرتهما على البلاد وانبعاث الدولة البابلية.

وفي النهاية ، خرجت سورية عموماً من أزمات العصر الأكادي / ولا سيما في ما بعد نارام سن / وحروبه ، ضعيفة جداً وبحضارة مدنية متقهقرة.[2] وإن كانت الفاعلية الأكادية قد خمدت وتلاشت في المستوى السياسي والعسكري ، غير أن قوة وروحية الثقافة الأكادية استطاعت أن تعبّر عن حضارتها في عدة أمور:

أولها: هو شيوع اللغة الأكادية والكتابة الأكادية على مدى المشرق العربي وتواصل هذا حتى الألف الثاني قبل الميلاد في مقابل انحسار للسومرية وآدابها.

وقد استطاعت اللغة الأكادية أن تسود في الألف الثاني قبل الميلاد وتصبح لغة عالمية كتب بها الملوك مراسلاتهم. وبقيت الأكادية سائدة حتى انتشار اللغة الآرامية وكتابتها في القرن الخامس قبل الميلاد.

الجدير ذكره هنا ، هو أن أرشيف ماري كُتب بالأكادية وكذلك وثائق مكتبة آشور بانيبال العائدة للآلف الأول قبل الميلاد بالإضافة إلى الكثير من وثائق أوغاريت في منتصف الألف الثاني. وقد أثبتت الأبحاث اللغوية على أن الأكادية هي أم اللغة العربية ، " فجذور اللغة العربية موجودة في اللغة الأكادية ، ومعظم التراكيب اللغوية والقواعدية ومصادر الأفعال وجذورها وتصاريف الأسماء والصفات الأكادية تشبه ما هو موجود في اللغة العربية الحالية "[3] ويشير د. فيصل عبد الله إلى أن " الطابع الحضاري الأكادي الذي تلّون بألوان مدن ذلك العصر / الألف الثاني ق.م / وعلى رأسها حلب وماري وبابل وجبيل ما يزال قائماً وسائداً حتى يومنا هذا وسيبقى لأنه عميق الجذور ، ومتين الأصول ".[4]

ثانيها: إذا كانت الفاعلية الأكادية التاريخية قد استمدت ركائزها من الفاعلية السومرية وجبّتها ، ولا سيما في المعتقدات والتجارة وهذا ما أشار إليه المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي في مؤلفه تاريخ البشرية ، فإن ما يَسِمُ الفاعلية الأكادية وبتميز هو أنها ساهمت في تأسيس مفهوم الدولة الزمنية وبعمق بحيث نستطيع أن نقارب معالم نشوء " فصل الدين/المعتقد/عن الدولة " فقد أبعد الأكاديون المعبد عن الشؤون الدينوية ونقلوا النشاط الاقتصادي والتجاري إلى القصر الملكي ، وأصبح المعبد خاضعاً بشكل كامل لمراقبة القصر.

وهذا الأمر لم يكن صراعاً بين الأقنومين بقدر ما كان تعبيراً طبيعياً عن التطور الذي آلت إليه الذهنية الأكادية الحضارية والتي تُختصر في مقولة " ما لقيصر لقيصر وما لله ، لله".

---

[1] مرجع سابق GEAN MARGUENOR , EXPOSITION – MARI

[2] مرجع سابق - MARGUERON

[3] عيد مرعي .تاريخ بلاد الرافدين .مرجع سابق.

[4] انظر فيصل عبد الله .الحوليات الأثرية السورية عدد 43 للاستزادة انظر أيضاً كتاب فقه اللهجات العربيات للدكتور محمد بهجت قبيسي وكتاب مقدمة في علم الأكاديات للدكتور فيصل عبد الله وكتاب د. علي أبو عساف " نصوص من أوغاريت ".

مملكة ماري بين 2266 . 2008 ق.م

ذكرنا سابقاً أن الاجتياح الكوتي للمواقع الرافدية الشمالية أدى إلى تدمير المدن هناك ، وكون أن ثقافة الكوتيين أولية وأدنى من الفاعلية الأكادية المتطورة ، فقد أدى ذلك إلى تدمير بغيض لمواقع المدن ، وقد حفلت الوثائق الأثرية بتفاصيل هذا الغزو البدائي ، فإحدى الوثائق تقول: ثعابين الجبال ، اختطفوا الزوجة من زوجها والأطفال من آبائهم ، ونقلوا الملكية من سومر إلى الجبال ، وبكت البنات ، المدن بسبب الكوتيين "

وأشارت وثيقة أخرى إلى ذلك حيث ورد فيها:

" البلاد في أيدي أعداء قساة
سيقت الآلهة إلى الأسر
وأثقل كاهل السكان بالضرائب
وجفّت الأقنية وشبكات الري
وأصبح نهر دجلة غير صالح لعبور السفن
ولم يعد بالإمكان ري الحقول
ولم تعطِ الحقول محاصيلها ".[36]

إذن تمّ تدمير البنى التحتية للمدن الرافدية الشمالية ، ونتيجة أن الجنوب الرافدي بقي خارج نطاق السيطرة الكوتية ، فهذا ما سوف يؤدي إلى إعادة ترتيب أوضاعه ، ونحو 2164 قبل الميلاد ، سنلحظ تأسيس حكم لسلالة حاكمة في لاجاش ، اعتبر من أشهر حكامها جوديا / ٢١٤٣ . 2124 ق.م / وتشير الوثائق إلى أن عدد سكان هذه المدينة كان حوالي 21600 نسمة ، وقد سيطرت هذه المدينة على جنوب بلاد بابل.

ويبدو أن فاعلية لاجاش الصاعدة دفعتها إلى محاولة تفعيل دورها التجاري ، وحتى حدود الاستئثار بحركة التجارة آنذاك عبر البعثات التجارية. وتشير وثائق تلك الفترة إلى حصول هذه المدينة على أخشاب الأرز من الأمانوس وخاخوم ، وأورشوم بالقرب من إبلا. كما استطاعت تأمين الأحجار اللازمة من بزالا ، وجبال مارتو وكيماش وسوزا والديلمون وماجان وملوخا ، كما حصلت على النحاس من كيماش وعلى الذهب والفضة من ملوخا. مع الإشارة إلى أنه في هذه الفترة شهدت استخدام اللغة السومرية وكتابتها ، ما يعطي تأكيداً لعدم انعدام الفاعلية السومرية في المشرق ويؤكد على روحية التفاعل والتمازج بعيداً عن معالم الإلغاء للآخر.

الجدير ذكره هنا ، هو أن الكتابة السومرية المستخدمة انتابها التطور بالإضافة إلى دخول الكثير من الكلمات الأكادية في متن اللغة السومرية. والمتابع بشكل عام يلحظ وجود تأثيرات أكادية مهمة في ثقافة لاجاش. وإلى جانب لاجاش ، نجد إعادة تأسيس لمدن أوروك وأور ، وفي مدينتي إسين ولارسا ، تمكّنت سلالتان كنعانيتان من تسنم عرشي هاتين المدينتين ، واللتين سوف تساهمان في نشوء الدولة البابلية لاحقاً.

ومع حوالي 2112 قبل الميلاد ، سنكون أمام منعطف مهم شكلّت مدينة أوروك نواته ، وذلك عبر مقاومتها للاحتلال الكوتي ، ومن ثم استطاعة حاكمها أوتو خينجال من هزيمة الكوتيين وأسر قائدهم تيريجان وهذا ما أدى إلى تحرير البلاد من الاحتلال الكوتي ، ليتفرغ الحاكم في أوروك إلى ترتيب أوضاع الجنوب الرافدي حيث عّين في أور حاكماً هو أورنمو ، الذي سرعان ما تمرد على الأول وبذا تنتقل الفاعلية التاريخية من أوروك إلى أور في حوالي 2110 ق.م وهذا يعني فيما يعنيه ، عدم تطور الوعي المديني إلى وعي أشمل رغم الغزو الكوتي للرافدين ، وقد جاءت في الوثائق ما يلي: "ضُربت أوروك بالسلاح ، وانتقلت الملكية منها إلى أور. في أور أصبح أورنمو ملكاً ، وحكم 18 عاماً ".[37]

واستمرت سلالة أورنمو في الحكم حتى 2002 ق.م. وأشارت الوثائق إلى أن أورنمو أطلق على نفسه لقب " ملك سومر وأكاد " لأول مرة ، ما يعني أن مملكة أور شملت كامل الرافدين في فعاليتها إذا صدقت الوثيقة. / عيد مرعي 1991 /. ومع تنامي فاعلية أور أصبحنا أمام مملكة احتوت مدناً للجناح الرافدي / لارسا . لاجاش . نيبور . أوروك وأور طبعاً / ومنطقة الفرات الأوسط بما فيها ماري وتوتول ، وآشور في الشمال وجبيل على الساحل السوري. وإلى أورنمو تُنسب أول قوانين حقوقية في العالم والتاريخ الإنساني ، والتي استطاعت أن تؤثر في مجال الحياة الحقوقية اللاحقة مثل قانون لبت عشتار وقوانين حمورابي وغيرها.

وضمن كل هذا وفيما يعنيه من صعود الفاعلية السومرية بعد التمكّن الأكادي في المشرق العربي ، سوف نشهد حركة ديمغرافية فاعلة / وإن بدأت منذ ما قبل منتصف الألف الثالث قبل الميلاد / باتجاه الجناح الرافدي قادمة من الجناح الشامي ، تجلّت في زيادة حركة العبور العموري البدوي القبلي ، وربما يعزى هذا إلى عوامل تغيّر مناخي جاف أدى إلى ارتحاله إلى الجناح الشرقي ومدنه.

ويبدو من وثائق هذه الفترة أن المدن الرافدية عانت من هذا الضغط القبلي العموري وعوالم تخريبه ، ما دفع حاكم أور " شوسين " إلى إنشاء خط دفاعي بري مائي يشمل ما بين دجلة والفرات ويمتد بطول 275 كيلومتراً لإيقاف انزياحهم إلى مدن الرافدين.[⊗] ويبدو أن الانزياح العموري نحو الرافدين ، ساهم بشكل أساسي في إضعاف فاعلية مملكة أور ما أدى إلى انتهائها عبر الهجوم العيلامي في حوالي 2002 ق.م.

وقد أشار هالدار إلى ذلك ، بالإضافة إلى أن هورست كلينغل لاحظ احتواء وثائق أور لهذه الفترة على أسماء عمورية وبشكل متزايد.[38] والجدير ذكره هو أنه في العشرين سنة الأخيرة من عمر مملكة أور وفي عهد إبي سين ونتيجة للضغط العموري بالإضافة إلى توثب عيلام للانقضاض عليها ، شهدت هذه المملكة تراجعاً في فاعليتها التاريخية ما سوف يسبب بداية انفصال المدن المشرقية المنضوية تحت فاعليتها ، عنها ما يعطي انطباعاً عن انعدام في وجود وعي ما فوق المديني.

⊗ العموريون هم سكان البادية الشامية وتشير الوثائق إلى أن نواة تواجدهم كانت في جبال بشري في البادية ، وجاء اسمهم من " أمورو " التي تعني الغرب. ويعود أول شاهد كتابي عموري إلى حوالي 2600 ق.م عبر نصوص موقع فارا في الرافدين ، وكذلك نقش تمثال الملك لمجي ماري ، / 2400 . 2350 ق.م / وإن كان جورجيو برتشيلاتي اعتبرهم أجانب في بلاد الرافدين غير أن التململ منهم لم يكن لسبب ديمغرافي بقدر ما كان رفضاً للثقافة الأولية الرعوية / السلبية وليست الإيجابية / التي كانوا عليها.
أنظر C. BUCCELLETI . THE AMORITES
وقد ورد في الوثائق الرافدية أن العموري " لا يعرف الحبوب " و " لا يملك بيتاً " و" يسكن خيمة تضرب بها الرياح والأمطار " للمزيد: انظر كتاب الفرد هالدار في نسخته العربية " العموريون " . دار الأبجدية 1993 دمشق.

فقد انفصلت إشنونا ثم لاجاش ثم أوما ، وفي مدينة إسين ، استطاع إشبي إرا وهو من مدينة ماري من حكم مدينة إسين حيث اتخذها عاصمة له ، بالإضافة إلى قيام نبلابوم العموري من حكم مدينة لارسا ، وهذا ما يعطي دلالة على عمق التفاعل والتداخل الديمغرافي الاجتماعي بين مدن الجناحين. أيضاً ثمة أمر مهم آخر يُعنى بزواج ملك أور " أورنمو " من ابنة حاكم ماري ابيل .كين. بما يعطي دلالة أخرى على مبلغ التفاعل والانسجام بين مدن المشرق العربي آنذاك.

إذن مع 2002 ق.م ، سوف نشهد انتهاء فاعلية مملكة أور ، غير أن ما يسم هذه الفترة هو الفعل الحضاري ، الثقافي الذي قدمته هذه المملكة بسلالتها لعموم المشرق العربي وتشير الوثائق إلى قيام الكتّاب والفنانون والنساخون ، بنسخ المؤلفات والأعمال الأدبية والفنية بحيث جمعوا الأساطير والنصوص الأدبية القديمة ومجمل الابداع الذهني المشرقي السابق والمعاصر ، وصنفوها في مكتبات المعابد والقصور.

وفي مجال الفنون ، عمد الفنانون إلى تصوير الحكام والأمراء على لوحات أو مسلات ، وهم يطلبون من الآلهة المدّ في أعمارهم ، ويعتبر هذا تطور مهم على صعيد الحياة الفنية في المشرق العربي. ⊗

ورغم أن الباحثين درجوا على وصف هذه الفترة بالصفة السومرية ، غير أن الطابع الأكادي كان يصبغ ثقافة هذه الفترة ، بالإضافة إلى وضوح الأرضية الثقافية السومرية ، ما يؤكد طبيعة التفاعل السومري .الأكادي .العموري - الكنعاني.

وبانتهاء فاعلية سلالة أور لم يعد هناك دولة قوية في مدن المشرق العربي ، ما أفسح المجال أمام منعطف حضاري جديد تجلّى في تعبير الفاعلية الديمغرافية العمورية الكنعانية عن نفسها ، عبر انشاء الممالك العمورية .الكنعانية على مدى مدن المشرق العربي وذلك مع مطلع الألف الثاني قبل الميلاد ، وفي وقت سنشهد ذوبان الفاعلية السومرية ضمن الفاعلية الديمغرافية المشرقية.

مدينة ماري في الفترة بين 2266 ـ 2008 ق.م

إذا كانت ماري ، قد فقدت استقلالها السياسي في زمن الفاعلية الأكادية ، وتراجعت فاعليتها التاريخية المستندة إلى البعد الاقتصادي . الزراعي .التجاري الذي تؤمنه لها مملكتها ، بحيث تحولت من مملكة إلى مدينة ، كون أن الفاعلية الأكادية المركزية والعسكرية استطاعت احتوائها ، فإن الاحتلال الكوتي لمدن الرافدين لم يؤثر مباشرة على ماري ، غير أن النهب والفوضى والتدمير الذي حَفَلَ به هذا الاحتلال لا بدّ من أن يؤثر على حركة التجارة وعلى دورة الحياة الاقتصادية . الاجتماعية لكامل منطقة المشرق العربي.

ثم مع طرد المحتلين الكوتيين ، وصعود نجم أور التي شملت فاعليتها كمملكة ، منطقة الفرات الأوسط بما فيها ماري وتوتول ،وآشور وجبيل بالإضافة إلى المدن الرافدية ⊗ ،سوف نجد أن ماري ستدخل عصر تأسيسها الذهبي العمراني والاقتصادي وكل مجالات الحياة وهذا ما سوف يعبّر عن نفسه في فاعلية ماري العمورية مع مطلع الألف الثاني قبل الميلاد. ففي فترة فاعلية أور ومملكتها ، تسّلم حكم ماري سلالة حكام يدعون " شاكاناك " وتعني الوالي/الولاة. وكان هؤلاء يمثلون ملك أور في ماري ويقدر عددهم بحوالي 13 حاكماً بدأت فترة حكمهم عام 2266 واستمرت حتى 2008 ق.م. / انظر الملحق الأول /.

ويبدو أنهم تسلموا السلطة قبل بزوغ فاعلية مدينة أور. ويُعتقد أن حكم هذه السلالة بدأ في فترة الفاعلية الأكادية ولا سيما في عهد الملك الأكادي مانيشتوزو 2275 .2260 ق.م.

وتشير المعطيات إلى أن ماري في هذه الفترة/فترة فاعلية أور/استعادت سيطرتها على منطقة الفرات الأوسط بمعنى أنها عادت لمملكتها ، وكانت علاقاتها جيدة مع مدن الجنوب الرافدي. وهذا الأمر ليس جديداً فبالعودة لما قبل منتصف الألف الثالث ، سوف يتم اكتشاف " كنز أور " في ماري ويعود إلى هذه الفترة حيث تضمن هذا الكنز على خرزة كبيرة من اللازورد عليها كتابات مسمارية هي كما يلي: " أهدى هذه الخرزة المغزلية ⊗ إلى الربة غال ، ميزا نيبادا ملك أور عندما كان آنسود ملك معيرا/ ماري ".(39)

وقد أمكن تحديد حكام ماري في هذه الفترة بحسب الوثائق الأثرية وهم: ابيل كين / تزوج ملك أور ، أورنمو من ابنة هذا الحاكم /. ايشتوب ايلوم .تورا داجان .بوزو عشتار / وهو يعتبر أشهر الحكام آنذاك / .هتلال عررا .حانون دجن.

وقد سعت ماري في هذه الفترة إلى إعادة تأسيس نفسها بكافة مناحي الحياة ، وإلى هذه الفترة يُعزى بناء القصر الملكي المشهور والذي دُشّن وافتتح في عهد زمري ليم في الألف الثاني قبل الميلاد. وفي هذا القصر عثر على تماثيل الشكاناكو.

ويشير مارجرون إلى " أنه ومع نهاية الألف الثالث قبل الميلاد ومع عودة النشاط الاقتصادي الكثيف إلى الرافدين مع سلالة لاجاش وأور ، شرعت مدينة ماري بعملية الارتقاء من جديد ، ومنذ وقت مبكر حيث يلاحظ إعادة لبناء المدينة بعد زوال السيطرة الأكادية ".(40)

كما يؤكد جان ماري ديوران إلى أن وقوع ماري تحت الفاعلية التاريخية لمملكة أور الثالثة وحكام الشكاناكو ، جعل ماري تصل إلى تحقيق فاعليتها التاريخية ، ويتحدث عن أن يخدون ليم وزمري ليم

⊗ للمزيد: يمكن الرجوع إلى كتاب سومر لأندره بارو 1978 .وزارة الثقافة .بغداد وكتاب د. علي أبو عساف .فنون الممالك القديمة في سورية .دار شمأل .1991 . دمشق.

⊗ تقع مدينة أور على بعد 365 كيلومتراً إلى الجنوب الشرقي من بغداد ، وعلى مسافة 17 كيلومتراً إلى الجنوب الغربي لمدينة الناصرية. وتشير الوثائق الأثرية إلى احتمال أن تكون مدينة أور في ذلك العصر قريبة من البحر أي مطلة على الخليج العربي. ويعتقد أن نهر الفرات كان يجري بجوارها ، في حين أنها تبعد عنه الآن غرباً حوالي 12 كيلومتراً. مع الإشارة إلى أنها تبعد الآن عن البحر بأكثر من 200 كيلومتر. ولاحتمال تجاورها في هذه الفترة مع نهر الفرات فإن هذا يدل على مبلغ أهمية الموقع الاستراتيجي لمدينة ماري في حركة التجارة الشرقية والعالمية في ذلك العصر.

⊗ عام 1965م كشفت تنقيبات ماري على جرة تحتوي عدة لقى أطلق عليها اسم " كنز أور " ، وقد حوت هذه الجرة على تمثال صغير من العاج لامرأة عارية ، وتمثال صغير من النحاس لإلهة عارية ولوحظ أن شعرها عليه عصبة جبهية من الذهب وقرنان صغيران/ علامة الألوهية / ، كما عثر على نسر له رأس أسد وقد تم نحته في لوحة سميكة من اللازورد حيث أن رأسه وجناحاه من الذهب ونُزّلت عيناه بالقار.

حوى الكنز أيضاً على زوجين من الأساور الأول من النحاس والثاني من الفضة ، وكذلك هناك ثمانية مشابك من الفضة والبرونز والذهب ورأس المشبك من العاج ، وسوار من الخرز صُنع من الذهب واللازورد وعقد مصنوع من الذهب واللازورد والفضة ، وثلاث نجوم من الفضة ، وستة تمائم لازوردية ، وخرزة كبيرة مغزلية من اللازورد متعددة الوجوه منقوش عليها بالمسمارية.

وأجدادهم ، مجموعة قبائل الخانيين في شمال شرق الفرات ، عرفوا كيف يكونوا الورثة الحقيقيون لعصر الشكاناكو.[41]

وبدوره مارجرون ، يعتبر أن هذه الفترة شكّلت أعظم حقبة في تاريخ مدينة ماري ، فمعظم العمائر التي تتألف منها المدينة في أيام زمري ليم / حوالي 1800 ق.م / تم بناؤها في تلك الحقبة الزاهرة.[42]

استنتاجات حول ماري

في فترة الثلث الأخير من الألف الثالث

أولاً: أن مدينة ماري عادت إلى مملكتها وأصبحت عاصمة لمنطقة الفرات الأوسط ، كما كانت قبل سيادة الفاعلية الأكادية.

ثانياً: أن القاعدة المادية لبنى ماري في الألف الثاني تأسست في هذه الفترة ، وشكّلت الأرضية الحضارية لانبعاثها فيما بعد. يقول د. فيصل عبد الله: "منذ عصر إبلا في الألف الثالث قبل الميلاد / من منتصفه تقريباً / ، كانت ماري تكدس الثروات ، والذهب خاصة. ويتحدث أحد النصوص في ماري أن فناناً استخدم قرابة كيلو غرام من الذهب لصنع شكل من أشكال البط ".[43] كما أن مبلغ الازدهار والرقي الذي حققته ماري جعلها في هذه الفترة محطة أساسية في خط التجارة المشرقي والعالمي كما سنرى في الفصل اللاحق.

ثالثاً: أن هذه الفترة أكدت على عمق التفاعل الحضاري والذهني في دورة حياة واحدة لكلا جناحي المشرق العربي. فمثلاً إن الرسومات والتلوينات الجدارية التي عثر عليها في القصر الملكي في ماري ، تُذكر بما حوته مسلة أورنمو في أور ، إن كان من حيث الشكل واللباس أو المضمون. كذلك فإن الأواني المرسومة في الجداريات تذكر بأواني أور في سلالتها الثالثة.⊗

رابعاً: يبدو للباحث والمدقق على أن ماري لعبت دوراً غير مباشر في إسقاط الفاعلية التاريخية لمدينة أور في سلالتها الثالثة. وهذا ما يتبدى في أن ماري ومحيطها ، كانت تُشكل بوابة العبور العموري من الجناح الشامي إلى الرافدي. كما أن ماري بحد ذاتها كانت الخزان الأساسي للتواجد العموري ، ويشير هالدار إلى أن ثمة رباط تقليدي كان يربط العموريين مع ماري ، التي كانت العاصمة الحقيقية لهم منذ فترة مبكرة.[44] فإن كان سقوط أور يعود للهجوم العيلامي وزاغروس ، إلا أن فاعلية الوجود العموري المتزايدة في الرافدين أسهمت في السقوط ذاك. مع الإشارة إلى أن أسباب هذا السقوط لم تكن لدوافع إثنية ، بقدر ما كان تطور طبيعي في حركة التاريخ أفرز إشراطاته ونتائجه في آن.

الواقع الاقتصادي ـ التجاري

فترة فاعلية مملكة أور الثالثة

لابد حين الحديث عن الواقع الاقتصادي والتجاري للمشرق في هذه الفترة ، من التأكيد على استمرارية وجود خطوط التجارة في الألف الثالث ، مع وجود بعض التغيرات والانزياحات التي فرضتها الأحداث السياسية والعسكرية. فمثلاً إن سقوط أكاد أفقد خطوط التجارة ميناء هاماً وفاعلية تجارية مهمة ، لصالح انبثاق فاعلية أور في ما بعد في مداها التجاري ، مع وجود أهمية واضحة لمدينة ماري ، كون أن الفرات الذي كان يمر قرب أور كان يُشكّل عصباً مهماً بين المدينتين من جهة ومع ما وراء الخليج العربي ، بالإضافة إلى عمق المشرق الشامي ثم الأناضول وعالم المتوسط بالنسبة لمدينة أور.

وقد أبانت وثائق أور العائدة لتلك الفترة عن استيراد النحاس من باكستان إلى أور عن طريق البحر. حيث كانت السفن تبحر من جزيرة فيلكه في الكويت ثم تمر بالديلمون / البحرين / حتى مضيق هرمز محملة بالسمسم والنسيج ، ومنها إلى ميناء سوتكاكين ودور ، وسوتكاكوه في باكستان ثم تعود تلك السفن محملة بالنحاس.

الجدير ذكره هنا ، هو أن هذه الطريق هي نفس الطريق التي نقلت سلع الحرير من الشرق إلى المشرق العربي ثم عالم المتوسط. وفي مقاربة زمنية تذكر وثائق جوديا حاكم لاجاش ، أنه استورد بضائع ومنتجات من مناطق بعيدة ، فالديوريت والأخشاب استوردتا من الديلمون وماجان. ومن ملوخا ، العقيق الأحمر واللازورد والذهب والنحاس. ومن الجناح الغربي / عَبْرَ ماري / استورد الألباستر والخشب والأحجار. ومن مناطق شرق دجلة ،النحاس.

وتشير الوثائق إلى أن التجار فيها كانوا يقايضون المنسوجات الصوفية والجلود وزيت السمسم بالنحاس من ماجان. وثمة ملاحظة هنا تختص في عودة المعبد في هذه الفترة إلى السيطرة على النشاط الاقتصادي وعائداته في تعبير عن تقليد سومري ، سبق للأكاديين أن أنهوه لصالح القصر والسلطة الزمنية/الدولة.

النظام السياسي في ماري في الألف الثالث

إذا كان الألف الثالث قبل الميلاد تميّز بالطابع الثقافي السومري ولا سيما في الجناح الرافدي ، ما عدا مدينة كيش ، فإن الجناح الشامي عبّر عن نفسه بالطابع الثقافي الأكادي .العموري ، ولكن هذا الأمر لم يكن بشكل منفصل ، فالتفاعل السومري .الأكادي .العموري سار بمنحاه الطبيعي على مدى الألف الثالث وهذا نراه واضحاً في ماري حيث ثمة تأثيرات سومرية في وسط أكادي .عموري.

وإن كانت كيش هي مركز فاعلية الديمغرافية الأكادية ، فإن ماري شكلت مركز الفاعلية الديمغرافية العمورية منذ منتصف الألف الثالث وما قبله حتى. وتأسيساً على هذا يمكننا مقاربة حركة حياة ماري في الألف الثالث بما تتضمنه من طبيعة نظامها السياسي وتركيبه ، وكذلك مجال الفنون والاعتقادات والحياة اليومية.

مع الإشارة إلى أن بعض ما سنناقشه ربما لم تشر إليه وثائق تلك الفترة ، لكن التفاعل الذي تحدثنا عنه قمين بأن يجعلنا نقارب الأمر وكأننا أمام مدن اتسمت بروحية واحدة وهذا ما كان ، وبالتالي فما ينطبق على مدينة ربما ينسحب على باقي المدن وهذا ما يؤكده الباحثون في مقاربتهم المختلفة لحضارة المشرق العربي ككل.

أيضاً تنبغي الإشارة إلى أن ما كان سائداً في الألف الثاني وأشارت إليه الوثائق ، لابد أن له جذوره الممتدة إلى الألف الثالث ، ربما مع بعض التطور ، غير أن الطابع العام يُعبّر عن نفسه جلياً. فالقيم والمعايير والرموز هي نفسها ، مع الأخذ بعين الاعتبار لواقع انتهاء فاعلية ما ، ولا سيما السومرية ، والتي ذابت في الفاعلية الديمغرافية المشرقية ككل وأخذت معها بعض رموزها الاعتقادية وبعض تقاليدها المجتمعية.

⊗ انظر علي أبو عساف. فنون الممالك القديمة في سورية. مرجع سابق وكتاب اندره بارو .سومر .مرجع سابق. وكتاب فنون سومر أكاد – انطون مورتقات.

ففي مقاربة للنظام السياسي في ماري في الألف الثالث ، أشارت وثائق مدينة نيبور الرافدية وكيش ، عن أن ماري حُكمت من قبل السلالة العاشرة بعد الطوفان ، وكان أول حكامها هو أنسود ، حيث حكم قرابة الثلاثين عاماً ، ويعتبر هذا أول حاكم لسلسلة من الحكام بلغ عددهم ستة حكموا ماري خلال 136 عاماً. ويعتقد أنهم حكموا في الفترة بين 2900 . 2600 ق.م

وتشير الأبحاث إلى أن ثبت الملوك هذا لم يستوعب جميع الملوك ، حيث كشفت وثائق إبلا عن أسماء ملوك لم ترد في ثبت الملوك ، وربما حكموا في الفترة بين 2600 . 2350 ق.م وهم: إيكوشمش ، سوم ، ايشتوب شار ، ايبلول إيل ، أنادجن ، لمجي ماري.[45]

وذكرنا سابقاً أن حكام مدينة ماري في فترة فاعلية مملكة أور الثالثة والذين أطلق عليهم اسم " الشكاناكو " قد حكموا في الفترة بين 2266 . 2008 ق.م وضمت قائمتهم 13 ملكاً أشهرهم بوزو عشتار ، الذي حكم بين 2050 . 2025 ق.م ومن هؤلاء الحكام نجد: ابيل كين . ايشتوب ايلوم . تورا داجان . هتلال عررا . حانون دجن. وبين 2015 . 1920 ق.م ، كان ثمة سبعة حكام حكموا مدينة ماري ، إلى أن نكون في حوالي 1825 ق.م أمام حكم السلالة العمورية التي بدأت مع يجيد ليم واستمرت حتى 1760 ق.م حيث ستسقط ماري بيد حمورابي بابل.

وفي طبيعة النظام السياسي في ماري ، لابد من الإشارة إلى أن الأرضية الذهنية التي طبعت هذا النظام سادت في معظم مدن المشرق العربي في الألف الثالث. ففي مجال مدينة إبلا ، نجد أن نظام الحكم الذي كان سائداً ، كان يقوم على سلطة الملك وإلى جانبه مجلس للشيوخ ، أعضاؤه من الفاعليات المشهود لها في الحياة المهنية والاقتصادية والاجتماعية والحرفية وغيرها ، حيث كانوا يشاركون الملك في اتخاذ القرارات المهمة لحماية المملكة ومصالحها.

وقد شملت معظم مدن المشرق على مثل هذه المجالس كما في أوروك وماري وكيش وأور وغيرها.[46] بدوره يؤكد هورست كلنغل على أن وثائق إبلا أكدت على وجود مجالس للشيوخ في أكثر من أربعين مدينة مشرقية ، تتقاسم بوضوح مع الحاكم والمسؤولين الآخرين حوله.[47] وكان يطلق على مجلس الشيوخ اسم " التهتامم " ويضم أعضاء مؤقتين ودائمين أو ينتخبوا انتخاباً بالإضافة إلى أعضاء كانوا يعتبرون وجهاء في مجالاتهم المختلفة.[48]

ويقوم مجلس الشيوخ هذا بالبت بالمسائل الاقتصادية والتشريعات المتعلقة بها ، كذلك الأمور السياسية ، وكانت قراراته نافذة. ففي وثيقة من ماري تعود إلى الألف الثاني قبل الميلاد / وهو ما يمكن أن ينسحب على الألف الثالث / نستطيع نبيان مدى قوة مجلس الشيوخ وقراراته ، حيث أن ملك ماري أبدى عدم رضاه على قرارات مجلس الشيوخ في مدينة توتول / التي كانت تتبع لفاعلية مملكة ماري / ، فأوعز الملك إلى ممثليه وكان يطلق عليهم اسم " الحصانم " أن يبلغوهم بالأمر ويقولوا لهم: إن القرارات الآتية من العاصمة ماري ليست هي قرارات الملك فقط ، بل هي قرارات مجلس الشيوخ أيضاً.[49]

وبالتوازي مع هذا الأمر ، تمّدنا وثائق الرافدين العائدة إلى الألف الثالث ، وهي عبارة عن قصيدة ملحمية تصف صراعاً بين مدينتي كيش وأوروك يعود إلى النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد ، حيث تشير هذه الوثيقة إلى وجود برلمان يتألف من مجلسين ، مجلس الشيوخ ومجلس للنواب في مدينة أوروك. وكان مجلس النواب يتألف من الذكور المحاربين ، لذا سمي بمجلس الحرب ، حيث يدعى للاجتماع لاتخاذ قرار يختص بالحرب أو السلام.

وتشير الوثيقة إلى أن مدينة كيش أحست بتعاظم قوة أوروك وفاعليتها حتى باتت تهددها ، وهذا ما دفع ملك كيش " أجا " إلى تهديد جلجامش ملك أوروك بأنه سيشن حرباً مدمرة على مدينته ما دفع بالأخير إلى عقد اجتماع لمجلس الشيوخ والنواب ، حيث دعا الأعضاء إلى عدم الإذعان لتهديدات كيش ، لكن أعضاء نجلس الشيوخ رفضوا رأي جلجامش وفضلوا الحل السلمي معها ، مما أغضب جلجامش الذي طلب انعقاد مجلس النواب /الحرب/ وكرر طلبه بالحرب ، فقرر الأعضاء هؤلاء عدم التسليم بتهديدات كيش وإعلان الحرب عليها.

ويبدو أن الوثيقة تنتهي بحيث حاصر ملك كيش أوروك ، ثم تُعقد مصالحة بين الطرفين دون قتال فيرفع الحصار ويتم إرساء صداقة بين المدينتين. الجدير ذكره هنا هو أن هذه الوثيقة كتبت بوقت متأخر عن الأحداث بحدود الألف عام.⊗

عمارة وفنون ماري في الألف الثالث

لا تفترق خصائص الفن في مدينة ماري على اختلاف أنواعه من عمارة وفنون نحتية وأختام ورسومات جدارية.. الخ عن المناخ العام الذي ساد الألف الثالث بقاعه الثقافية في كلا الجناحين. خلا ، بعض الطفرات الفنية التي كانت تشهدها بعض المدن فتقدم الجديد بما يناسب ممكناتها. كما أن طبيعة البيئة الجغرافية فرضت إشراطاتها في كلا الجناحين ، فمثلاً كانت مدن الرافدين تفتقر إلى الحجارة والأخشاب ، في حين أن هذا متوافر وبكثرة في الجناح الشامي.

أيضاً ، ومثل كافة المجالات الأخرى ، فإن الحياة الفنية على أشكالها كانت تستند بعمق على الواقع الديمغرافي الاجتماعي. فإن كان الفن في ما قبل الألف الثالث هو فن ذو ثقافة رافدية ، فإننا وباتجاه الألف الثالث وباطراد سنجد ظهور روحية جديدة تستند على ما سبق وتضيف عليه كما في الثقافة الأكادية وكذلك في مجال الثقافة العمورية الكنعانية.

إذن ما يحكمنا هنا هو خط تواصل ذهني روحي واحد يستمد جذوره من الواقع الاقتصادي .السياسي ، وكل ذلك ضمن اطار تفاعل مجتمع المدينة مع بيئته الطبيعية ، وتفاعل المدن فيما بينها بما أدى إلى نشوء روحية واحدة تشمل مواقع المشرق العربي كافة. يقول الدكتور علي أبو عساف: " لقد أظلت الهلال الخصيب حياة جديدة وسادت السكان مفاهيم وقيم .. وحلت في أذهانهم وعقولهم وقلوبهم مُثل أخرى "[50] وذلك في إشارته إلى هذه الفترة من تاريخ المشرق.

في الحياة العمرانية:

شهدت مدينة ماري منذ تأسيسها معالم عمرانية وإنشائية تتناسب مع ذهنية التخطيط المسبق ، حيث أننا أمام أنظمة متطورة للري كالأقنية والسدود ، وأنظمة ملاحية مبتكرة ، بالإضافة إلى سعي المدينة لتأمين مياه الشرب عبر الأقنية والسدود التي تجمع مياه الأمطار.

ويبدو أن الازدهار الذي وصلت إليه ماري مع تأسيسها وانطلاقها في القرون الثلاثة الأولى من الألف الثالث تجلى واضحاً في القصور الفخمة والمعابد ، ومنحوتات تدل على وجود مدرسة فنية في ماري تعدّ

⊗ انظر .من الواح سومر .صموئيل كريمر .ت: طه باقر .بغداد .مفضل التاريخ . مكتبة المثنى

من أقوى مدارس الفن وأكثرها أصالة في " المشرق العربي " على حد قول أندره بارو.(51)

ففي مجال العمارة المعبدية ، كشفت التنقيبات عن معبد عشتار ، حيث يتألف من حرمين متجاورين لا يوجد بينهما باب ، وفيهما مقاعد ومنبر وقد أقيم هذا المعبد بجوار سور المدينة الغربي. وقد بنيت جدران المعبد باللبن فوق أساسات من الحجارة الكلسية .الجيرية ، ووضع فيها 13 مسماراً برونزياً. وشرق هذين الحرمين ثمة باحة ذات أرضية اسفلتية تحتوي على حوض للماء المقدس ، ومصطبة للذبائح ، ومذبح ، حيث تجرى الطقوس المعتقدية. وشرق هذه الباحة تقع مساكن الكهنة.

أما معبد عشتار الآخر ، فعثر عليه وسط المدينة ، حيث يشبه في مخططه مخطط البيوت ، وتتجه زواياه نحو الجهات الأربع. حرم هذا المعبد مستطيل ينفتح على باحة تحيط بها الحجرات ، كما أنه يحتوي على مقاعد ومنبر. وهناك معبد نيني زازا الذي يجاور معبد عشتار من الجهة الشمالية الغربية ، وقد اشتمل هذا المعبد على باحة ينفتح عليها الحرم كما وتحيط بها الحجرات ، وقد تم تزويق واجهاتها المطلة على الباحة بالمحاريب. ووسط الباحة ثمة عمود بازلتي بارتفاع 1.50 م ، له وظيفة وقيمة اعتقادية.

قصور ماري:

أدت التنقيبات إلى الكشف عن ثلاثة قصور متوضعة فوق بعضها البعض ، حيث أنها بنيت الواحد فوق أنقاض الآخر وذلك على مدى عشرات السنين.

القصر الأحدث من هذه القصور يطلق عليه القصر .المعبد ويقع تحت قصر زمري ليم ، ويرجح أنه يعود إلى منتصف الألف الثالث أو مع بداية الفاعلية الأكادية. هندسة هذا القصر تشبه هندسة المعابد ، وتضيع المعالم بين الوظائف المعتقدية فيه والوظائف الزمنية. بيت العبادة في هذا القصر ، كبير ، توحي باحته المركزية على طابع اعتقادي. ففي وسطه باحة مربعة طول ضلعها 10 متر وجدرانها مزوقة بالمحاريب. وحوّث على درب مزفت ، ومنضدة نذور وحوض للماء المقدس ومذبح. وتحيط بهذه الباحة الغرف الكبيرة والصغيرة ، وفي الطرف الجنوبي عثر على قاعة كبيرة / 2.5 ✕ 7م / تميزت بوجود قدس الأقداس فيها.

ولوحظ أن ثمة ممشى يحيط ببيت العبادة هذا ، يبدوا أنه يشكل عقدة مواصلات تتفرع عنها الدروب إلى جميع جهات القصر. وعثر في هذا القصر .المعبد على بقايا عمود خشبي من أرز لبنان. الجدير ذكره أن القصور كانت تقام فوق القصور والمعابد فوق المعابد في خط الحضارة المشرقية العمراني.⊗

أما البيوت السكنية ، فقد أنشئت على أسس قوية وصلبة من ألواح حجرية ، وكانت على شكل مستطيل أو شبه منحرف تتجمع مع بعضها البعض في كتل بينها مساحات فارغة تؤلف مساحات محاطة ببوابات. مخططها متشابه وثمة باحة تنفتح عليها غرف البيت / بما يذكر بالبيت الدمشقي /.

وبنيت تلك البيوت من اللبن وأساساتها صنعت من الحجر الكلسي المنحوت. وصنعت المنشأت المائية مثل الأحواض والخزانات من الآجر المشوي. أما البيوت فكانت تُطلى جدرانها بسائل من الطين الممزوج بالتبن وتلصق عليه تزينات هندسية على شكل نواتئ وغوائر وأحياناً يضاف طرش أبيض من الكلس.

إن ما قدمته عمارة ماري في الألف الثالث يشي عن ذهنية ، حضارية عمرانية متعددة ومبدعة وهذا ما يدفع مارجرون للقول: " إن البنية المعمارية المكتشفة في ماري أحدثت انقلاباً في المفاهيم المتعارف عليها حول عمارة بلاد المشرق في الألف الثالث قبل الميلاد. / مارجرون 1996 /.

وإن تحدثنا عن عمارة الألف الثالث في ماري فلابد أن نعرّج إلى القصر الملكي الذي عرف بقصر زمري ليم ، والذي تمَّ تدشينه في حوالي 1800 قبل الميلاد ، لكن تاريخ انشائه يعود إلى فترة الثلث الأخير من الألف الثالث ، بحيث يبدو أن البدء في عمرانه تم في حوالي 2285 ق.م واستمر لعدة قرون حتى دُشن في عهد الملك زمري ليم.

وتشير المعطيات على تعاقب البناء فيه قبل اكتماله ثلاث مرات حسب كل سوية. ويبدو أن مخطط هذا القصر أو فكرته مستوحاة من تقليد إبلائي عتيق ، حيث تظهر الدراسات المقارنة أن القصر خ في إبلا الذي يعود للألف الثالث قبل الميلاد ، يشابه في مخططه مخطط قصر ماري ما يعني أن فنان ماري حاول أن يحاكي تصميم قصر إبلا الذي دُمر في حوالي 2250 ق.م.(٥٢)

تبلغ مساحة هذا القصر هكتارين ونصف ، وأكبر طول فيه 200 متراً ، والعرض 120 متراً. ويحوي على 300 حجرة يصفه اندره بارو بأنه كان يؤلف مدينة داخل مدينة. وكان يعتبر من إحدى عجائب العالم. القصر محاط بسور مدهش ، الباحة السماوية المركزية تبلغ مساحتها 49 ✕ 33 متراً ، وتقع قاعة العرش على أحد أضلاع هذه الباحة.

ويشير بارو إلى أن معماريي ماري كشفوا على أنهم رجال سياسة حقيقيين ، حيث أن هذه الباحة بإمكانها أن تستوعب من يشاء كي يشاهد الملك ويخاطبه وهذا يعكس طبيعة علاقة الحاكم مع المحكوم.

الزاوية الشمالية الغربية من القصر ، تحتوي جناح الأسرة الملكية ، وقد تمَّ اختيار هذا الركن لعزل الأسرة عن الصخب والضوضاء.

وقد حوى هذا الجناح الملكي على 23 غرفة متوضعة حول باحة داخلية مكشوفة ويشغل هذا الجناح حوالي 20/1 من مساحة القصر الكلية وهذا دليل تواضع وبساطة / PARROT . 1974 /

ويبدو أن تصميم مخطط القصر الداخلي جعل تنقلات الملك تبدو سهلة وسريعة ، دلَّ على ذلك وجود ممرات متعددة ، حيث كان الملك يستطيع أن يصل إلى أي من الأجنحة الهامة عن طريق عدة أبواب ، فمثلاً الباب الشرقي كان يقود إلى قاعة الجلسات والاجتماعات أما الباب الجنوبي الشرقي فكان يقود إلى قاعة العرش وثمة باب جنوبي يؤدي إلى غرف الأرشيف والرقم والنسخ والجناح الإداري.

وتبين أن الملك يستطيع خلال دقائق معدودة أن ينتقل من مسكنه إلى قاعة العرش بما يعبّر عن ذهنية معمارية عملية ومبدعة.

وفي المنطقة الشرقية من القصر عثر على عشر غرف تختص بالمسافرين وسعاة البريد والغرباء وتحتوي مطابخ وورشات وكوانين لا تزال مزودة بالفحم الخشبي حين تم اكتشافها وكانت جاهزة للاستخدام.

⊗ استندنا في مناقشة عمارة ماري على كتاب الدكتور علي أبو عساف .آثار الممالك القديمة في سورية. مرجع سابق. وكتاب أندره بارو — ماري.
وكتاب " سومر" للمؤلف نفسه. وكتاب " فنون سومر وأكاد " — أنطون مورتقات.

ويشير بارو إلى أن الناس كانوا يتحدثون عن هذه العجيبة ليس في بابل وحدها/ وذلك خلال الألف الثاني بل حتى الشواطئ التي تغيب فيها الشمس أيضاً.

الجدير ذكره أن عدد طوابق القصر اثنان ، وثمة مجمعات أبنية تتوسطها باحات ، كما عثر على أقنية لتصريف المياه المالحة. وقد دلت الكشوف والدراسات على أن هذا القصر أبان عن تقنية جديدة في البناء تجلّت في وجود محاجر مقولبة في سقف قاعة لعرش وهذا الأمر يعتبر ميزة جديدة وهي الأولى من نوعها في المشرق العربي آنذاك. وبشكل عام يبدو مخطط هذا القصر متماشياً مع التقليد العمراني العام لقصور المشرق العربي.

وهنا تستوقفنا دراسة قام بها الباحث أوليفييه أورانش تحت عنوان " الملاحظات العرقية وأثرها في فهم الأوابد القديمة .قصر ماري وقصور " الشرق الأوسط " المعاصرة ".[⊗] حيث يقارن الباحث بين الفن المعماري القديم والفن المعماري الحديث في المشرق العربي ولا سيما في نطاق القصور ويصل إلى استنتاجات عديدة:

أولها: تبين نتيجة الدراسة المقارنة بين الفن المعماري القديم في ماري والهندسة المعمارية القائمة حديثاً على أن النتيجة إيجابية لجهة الخصائص الفنية والروحية.

ثانيها: تبيّن أن جميع وظائف قصر ماري قد وجد لها مثيلاً في مجتمعات القصور المعمارية المعاصرة.

ثالثها: أن العوامل الإجتماعية التي أثرت على تكوين الفراغ والبناء في حضارة المشرق العربي ، نجدها في الحضارة الإسلامية التي تلتها وفي الوسط الجغرافي ذاته.

فنون ماري في الألف الثالث:

إذا كانت الفنون المجتمعية لا تنفصل عن حركة المجتمع وطبيعته وتجلياته المختلفة ، فإن هذا ينطبق على مساق بحثنا في فنون ماري ، يقول اندره بارو: " إن الفن حلقة في سلسلة لا نهاية لها ، حلقة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بما سبقه وبما سيعقبه "[53]

والفن في ماري في هذه الفترة ، سواء لجهة فن النحت أو النقش على الأختام الأسطوانية والأواني الحجرية إلى الرسومات الجدارية وغيرها ، لا يشذ عن القاعدة الذهنية التي حكمت الخط الحضاري الفني المشرقي بعامة ، إلا في بعض الابداعات المميزة أو الطفرات التي كانت تنبثق من هنا أو هناك.

بالإضافة إلى هذا فإن تعدد المذاهب والمدارس الفنية بين مدن المشرق العربي يتبدى واضحاً من خلال الأعمال الفنية ، وإن كنا قبل عصر ماري / قبل نهاية عصر فجر التاريخ 3500 . 2900 ق.م / قد شهدنا مثل هذا التنوع ، وهذا ما نلاحظه مثلاً حين مقاربتنا للنقش على الأختام الاسطوانية ، كذلك في مجال فن نحت الدمى ، فإن مواقع الجنوب الرافدي اتصفت بميلها إلى المذهب الواقعي / دون أن تدري طبعاً / أما في الشمال في تل براك وآشور فنشهد اتباع الأسلوب التجريدي.[54]

فإذن ، ضمن المنظومة الفنية العامة ، والخط الحضاري الفني ، نشهد حالة من الغنى والتنوع ، وهذا ما يُفّعل المنجز الفني ويُغنيه ويجعله إنسانياً في مستواه الإنساني.

ففي مجال فن النحت ، تلحظ الدراسات على أن فن النحت بعامة وعلى مدى المشرق العربي كان تكعيبياً وهندسياً وذلك في الألف الرابع قبل الميلاد ، ومع الألف الثالث اتجه هذا الفن للأخذ بالمنحى الواقعي ، وبمعنى آخر ، كان الفنان المشرقي بعامة يجتهد لرسم واقع منظور يحاكي الحياة مع مميزات فردية وشخصية لشخوصه. وهنا كنا أمام الخطوات الأولى للانطلاق من التجريد إلى التصويرية ، حيث أصبحنا أمام تماثيل لأفراد عائلة واحدة ولكن لكل منها شخصيته وملامحه التي تميزه عن الآخر ، كما الواقع.

وهنا تستوقفنا دراسة مقارنة بين تماثيل مشرقية تعود للألف الثالث ، وتماثيل تعود للألف الأول قام بها أندره بارو ، حيث يلاحظ أن تماثيل الألف الأول قبل الميلاد كان من المستحيل تمييزها عن بعضها البعض ، فتمثال شاروكين الآشوري مثلاً لا يختلف عن تمثال سنحاريب أو آشور ناصر بعل أو آشور بانيبعل ، وفي حين أن تماثيل الألف الثالث تميزت بدقة الملامح وتمايزها بين الشخوص تماماً كما الواقع.[⊗]

ونحن نعتقد أن سبّب هذا الانحدار في الألف الأول ، يعود لمجمل الظروف الموضوعية التي تحكّمت بحركة التاريخ في تلك الفترة بحيث أن المجالات الروحية لم تأخذ حيّزها الطبيعي. وبالاتجاه نحو منتصف الألف الثالث ، نجد كثافة وغزارة في إنجاز تماثيل فردية لمتعبدين وهذا على مدى مدن المشرق العربي. وكانت تماثيل ملوك ماري وتماثيل كبار الكهنة توضع كتماثيل نذرية في المعابد ، كتقدمة للآلهة. وتشير المعطيات الأثرية إلى أنه كان هناك مشاغل في ماري تقوم بصناعة التماثيل ولا سيما اللاشخصية حيث تباع للحكام والكهنة من أجل وضعها في المعابد.

وتغزر التماثيل الرجالية مقابل قلة التماثيل النسائية / هذا على عكس العصر السابق حيث كان الحضور الأنثوي في مجال التماثيل ، طاغياً/. تماثيل العُباد هذه تبلغ 40 سم طولاً ، وتحمل معظم هذه التماثيل صفات عامة ، لرجل له لحية مستطيلة طويلة ومتجعدة ، أما شعره فطويل ومضفور بحيث يتدلى على جانبي الرأس وفوق الظهر وبجانب اللحية. وثمة تماثيل لرجال متعبدين حليقين ، ويرتدي الواحد منهم مئزراً معذقاً ، يستر الأطراف السفلية من الخصر حتى تحت الركبتين ، ويشدّه حزام عريض إلى الخصر ، ويلاحظ تشابك اليدين على الصدر العاري ، أما العيّون فكانت مصنوعة من نفس الحجر وأحياناً من الصدف أو من حجارة ذات لون مختلف عن لون حجر التمثال في حين أن الجفنان من القار.[⊗]

أما لناحية أسلوب النحت ، فقد عمد الفنان إلى تحرير جسم التمثال عن الكتلة الحجرية ، بحيث استطاع إظهار أعضاء الجسم كالذراعين والساقين والرأس ، مع الاحتفاظ بتوازن التمثال. الجدير ذكره أن الفنان النحات كان يخضع في عمله لنُظم محددة أهمها أن الفواصل بين أعضاء الجسم البشري ذات شكل منتظم وكذلك المحيط الخارجي للجسم البشري. كما استطاع النحات حصر الكتفين والعضدين والخط الواصل بين المرفقين المار بالحزام ضمن إطار مستطيل أو مربع.

⊗ انظر فيصل عبد الله .دراسات تاريخية 37 .38 – قراءة في خمسة مجلدات من ماري.

⊗ انظر أندره بارو .سومر .1978 .العراق .وزارة الثقافة.

⊗ انظر .علي أبو عساف .فنون الممالك القديمة .مرجع سابق. وأندره بارو .سومر . مرجع سابق.

ويشير د. أبو عساف إلى أن ظاهرة حصر العمل ضمن إطار هندسي ، شغلت بال الباحثين الذين رأوا فيها مقاربة بين النحت في الحجر والقطع في الخشب وسكب المعدن وطرقه.

وقد عثر في معابد ماري وفي المدينة ذاتها على مجموعة كبيرة من التماثيل للعبّاد الورعين ، وعلى مدى 2700 . 2350 ق.م أنتجت ورشات ماري تماثيل لرجال واقفين وجالسين / ولو بشكل أقل /. وكانت تماثيل النساء ، لنسوة واقفات وجالسات ، حفاة ، يرتدين ثوباً طويلاً فضفاضاً يستر الجسم ، لكن الكتف الأيمن يبقى مكشوفاً. وثمة عباءة وقلنسوة يتسترن بها.

وبالإضافة إلى التماثيل اللاشخصية ، عثر في ماري على تماثيل شخصية كما لملك ماري لمجي ماري / 2400 . 2350 / ق.م. وكذلك تمثال الملك إيكو شماكان 2500 ق.م ، وتمثال للموظف ايبش ايل 2700 . 2600 ق.م ، ويعتبر هذا التمثال من أجمل تماثيل ماري لمدلولاته الفنية وإيماءاته نسبة لفترته.

كما تنبغي الإشارة هنا إلى تمثال المغنية أورنينا / أورنانشه / الذي عثر عليه في معبد نيني زازا وقد نذره لها ملك ماري إبلول إيل. ويعتبر هذا التمثال من الأعمال المميزة حيث تبدو المغنية جالسة على أريكة صغيرة وقد انحسر ثوبها إلى أعلى متجمعاً على الفخذين فوق الركبتين وقد فقدت اليدان والآلة الموسيقية من التمثال.

وفي إطار آخر مميز أظهرت منحوتات ماري لتماثيل أخرى تختص بزوج / رجل وامرأة / حيث يحتضن الرجل المرأة في حنان وحب وقد بدا أن الرجل يرتدي مئزراً معذقاً وجذعه عاري في حين أن المرأة ترتدي الرداء المغذق المكشوف عند الكتف الأيمن وهذه التماثيل انفردت بها ماري عن بقية مواقع المشرق العربي المعاصرة. وكانت المواد الأكثر استخداماً في نحت التماثيل هي الجص الذي يتواجد بكثافة في مقالع قريبة من ماري وعلى أطراف بادية الشام. "ومما يثير الدهشة أن نرى أن هذا الحجر الرديء من كل النواحي لم يحل دون بلوغ بعض التماثيل صفة الكمال تقريباً ، وكان أهل ماري معلّمين حقاً في شتى الميادين ".[٥٥]

وبالإضافة إلى الجص كان ثمة تماثيل مصنوعة من الرخام الذي كان يجلب من أماكن بعيدة عن الفرات ، كما استخدم فنانو ماري اللازورد الذي كان يجلب من أفغانستان لتشكيل العيون في التماثيل.

كما أنه صنعت تماثيل من البرونز ، وفي معرض مقارنته بين تماثيل إبلا وماري يشير الباحث أبو عساف إلى أنه في إبلا لم يعثر على تماثيل حجرية بالمطلق بل عثر على تماثيل مركبة من مواد عدة كالحجر والخشب والصدف والذهب وتبيّن من خلال الدراسات المقارنة أن ثمة تمثالاً من إبلا يشبه تمثال ملك ماري / لمجي ماري /.[٥٦]

وفي مجال الفسيفساء والأختام الاسطوانية يشير الباحث بيير أميه إلى أن موقع ماري قدّم أكبر مجموعة من الأختام وطبعاتها ، في حين أن الخيال الذي كان مصدر إلهام الفنان في ماري ، جعل التكوين الفسيفسائي أكثر رقة من القسوة الرافدية. فقد عثر على كسر من لوحات فسيفسائية مركبة من قطع الصدف والعاج والحجر الكلسي الأحمر والحجر المشقف حوّت على مشاهد عديدة تُذكر بما عثر عليه في أور الرافدية.

كما تجمع الدراسات على أن أهل ماري كانوا معلمين بارعين في زخرفة الأواني الحجرية النذرية.

فن النقش على اللوحات:

عثر في مواقع المشرق على لوحات منقوش عليها أو مسلات ، وقد تضمنت هذه النقوش مجلساً للشراب ، وقد كشف موقع مدينة ماري عن عدة كسر من اللوحات نذرية تحتوي في مضمونها مجلساً للشراب. صُنعت من الحجر الجيري كما عثر على كسر أخرى بلغت أبعادها بعد جمعها 11.6 × 6.3 سم ، وعثر عليها في القصر المعبد في ماري.

وقد عمد الفنان إلى حصر المشاهد في تسع مربعات ، تمّ توزيعها على ثلاثة حقول متدرجة تفصل بينها أثلام ، ويبدو أن المشاهد لا تؤلف موضوعاً واحداً. فنرى في المشهد الأول ، شخص عار لحياني ذو شعر مضفور يمسك بكلتا يديه ثورين ، لهما وجه إنسان ، وينتصبان على القائمين الخلفيين. أما المشهد الثاني فهو لنسر بوجه أسد ينشب أظفاره بعنزتين جبليتين. وتعود هذه الكسر إلى حوالي 2500 . 2350 ق.م ، وقد اعتمدت الأسلوب الواقعي.

ويبدو أن النسر الذي برأس أسد وهو ما يسمى بالسومري الأكدي / أنزوجود / كانت تصنع له دمى ، عثر على واحدة منها في ماري مع مجموعة من التحف الثمينة التي كانت معبأة في جرة مطمورة بأرضية القصر المعبد الذي يعود إلى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد. وقد تألف الجسم من حجر اللازورد والإسفلت والنحاس والذهب ، ارتفاعه 12.8 سم وعرضه 11.8 سم.

أما في مجال فن الترصيع ، فقد كانت أور وماري من أكثر مدن المشرق شهرة بذلك. وقد أبانت تنقيبات ماري عن وجود لوحة سميت " لوحة الحرب " بحيث صنعت من العاج واللؤلؤ والحجر بدقة عالية ، يظهر فيها رجال القصر ببذات الاحتفال والأوسمة المبرقعة والسدارة وهم يحملون بلطات. ويستقبلون الأسرى العراة تحت حراسة الجنود. وما يميز هذه اللوحة أن الفنان استطاع أن يميّز بين الصديق والعدو حسب اللباس. وأيضاً هو استطاعة الفنان أن يعكس انفعالات الشخوص بشكل واضح.

كما عثر على لوحة تُمثل مشهد أضحية من الحجر الكلسي الوردي والحجر المشقف والعاج واللؤلؤ بقياس 25.7 × 17 سم. وكذلك على لوحة مركبة من اللؤلؤ والحجر المشقف والعاج حوت على مشاهد اعتقادية وأبعادها 52.6 × 25.9 سم. وتحفل مقتنيات ماري بفن النقش على الأواني الحجرية أيضاً وفن النقش على الأختام الاسطوانية.

والطريف أيضاً ، هو العثور في ماري على أقراص حلوى منقوش عليها مشاهد حياتية ، كمشهد صيد أو رسومات أو أساطير ، وهذا يعطي انطباعاً على أن ثمة مع كل قطعة حلوى ، قصة ، على حد تعبير الباحث حميدو حمادة - /2002 /.

الحياة اليومية في مملكة ماري في الألف الثالث

إن مناقشة طبيعة الحياة اليومية في مملكة ماري في الألف الثالث ، لا تشذ عما ألفناه سابقاً ، من الأخذ بمعايير أساسية شكلّت القاع الثقافية لعالم الألف الثالث في المشرق العربي ، فمن طغيان الثقافة الرافدية وتجلياتها ، إلى تزايد التواجد الأكادي .العموري ومن ثم حصول نوع من التفاعل والتعايش والتمازج بين كل الأرومات الديمغرافية ، كل هذا شكّل قاعدة لإمكانية دراسة الحياة اليومية في الألف الثالث في ضوء المعيار الأساسي المتجلّي في التفاعل والتمازج ، بما يُذكّر بمقولة ألفرد هالدار:

" كان هناك عملية تبادل بين المجموعات ، بين الشرق والغرب / في المشرق العربي / ، وهذا يعني أن العموريين المستوطنين في بلاد الرافدين ازداد عددهم بشكل مستمر ، وأخذت هذه العملية في التسارع ، كما تراجعت في فترات ، ولكن منذ أول ذكر للعموريين في 2600 ق.م وحتى 2000 ق.م ، تكاملت هذه المسألة "[57]

ولعلنا في مقاربتنا للحياة اليومية في مملكة ماري في هذه الفترة ، سوف نستند على وثائق الألف الثاني ، لقلة الوثائق العائدة للألف الثالث في هذا المجال ، كما أن الوثائق الرافدية المعاصرة ، تُقّدم معلومات عن طبيعة الحياة اليومية هناك ، وهذا برأينا يمكن أن ينسحب بشكل عام على مواقع الجناح الشامي.

مع الإشارة إلى اكتفاءنا بالخطوط العامة دون الدخول في التفاصيل ، التي تختص بمدينة ما ، وكذلك دون إلصاق معالم الألف الثاني بشكل كامل وقطعي وجازم بعالم الألف الثالث ، علماً أن من يلاحظ طبيعة انتقال السلطة السياسية مثلاً في ماري مع نهاية الألف الثالث ولا سيما بعد انتهاء حكم سلالة" الشكاناكو " سوف يجد أن انتقال السلطة من هذه السلالة إلى السلالة العمورية ، كان انتقالاً سلساً وعفوياً ، لم يوازه انقلاب مفاجئ في القيم والمعايير والرموز ، بما يعني أن المنظومة الحضارية التاريخية في الألف الثالث عَبَرتْ إلى الألف الثاني بشكل طبيعي ، وهذا ما يعطي صفة التواصل والاستمرارية بُعداً مهماً في قراءة الحياة اليومية في المشرق بعامة وماري بخاصة في الألف الثالث. والأساس في كل هذا هو أن الثقافة العمورية تمثّلت الثقافة السومرية .الأكادية ومن ثم أضافت عليها ، وهذه تشكّل خصيصة أساسية من خصائص الحضارة في المشرق العربي.

وبالعودة إلى معالم حركة المجتمع في مملكة ماري في الألف الثالث قبل الميلاد ، فإن ما أشرنا إليه من نشاط الحياة الاقتصادية والتجارية والحرفية والاجتماعية وغيرها ، ينبئ بأننا أمام وجود مؤسسات تُعنى بفاعليات هذا المجتمع ، كي تُنظم شؤونه وتصيغ نمط علاقات حضارية بين الأفراد وبين المؤسسات ، وهذا ما تشير الوثائق إليه. فالغرباء في ماري ، كان يحقّ لهم إنشاء جمعيات أو نقابات تُعنى بشؤونهم وأحوالهم ، كما توجد جمعيات للمساكين / الفقراء / كان يطلق عليها اسم" موشكينوم " / وبإمكاننا ملاحظة مبلغ التشابه الكبير بين هذه الكلمة الأكادية وكلمة مسكين أو المساكين بالعربية /.

ونعتقد أن أغلب مدن المشرق في هذه الفترة ، شهدت وجود مثل هذه الجمعيات أو الاتحادات ، كما أنه كان للتجار جمعيات تُسّير أحوالهم وتضمن حقوقهم وتحّل مشاكلهم ، وكانت هذه الجمعيات تمثّل التجار في الوساطة بين القصر والسكان. وكان يطلق على هذه الجمعيات اسم " كاروم" / الكار = المهنة في العربية /. وكان التنقل في المراكب النهرية يتّم وفق نظام ملاحة مستقل ، تديره تلك الجمعيات ، وتذكر إحدى الوثائق أن أحد الملاحين وقبل أن يصل إلى مرفأ مدينة ايمار ، كان ينتظره ستون رجلاً لتمهيد الطريق له ، حيث يتجهون نحوه مع الحرس وملاح خبير بارشاد السفن ، كما تكون بانتظاره 30 طوافة في المياه.[58]

وأشارت نصوص ماري إلى أن التجار العابرين / عبرها / كانوا يقدمون هدايا من بضائعهم للمدينة ، وكانت الضرائب لا تشمل تنقل الأفراد بل كانت على البضائع التجارية فقط.[59] ويشير الباحث هنري ليميه إلى أن وثائق ماري تشير إلى معرفة أهل ماري للحديد منذ وقت مبكر لكنه كان قليل الاستعمال بسبب غلاء ثمنه حيث يفوق سعر الفضة بثماني مرات.[60]

ولم يكن الطفل في ماري يُعرف باسمه. بل باسم امه ، إلى أن يكبر ويدّب على قدميه ، وثمة وجود لطقس يختص بترسيم الأطفال حيث يتم إلباسهم ثياباً جميلة لأول مرة في حياتهم.[٦١]

وتذكر الوثائق أيضاً ، إقامة حفلات موسيقية في القصر ، حيث يُذكر مكان فرقة العزف ووجود مغنين ومغنيات / كما في تمثال المغنية أورنينا /. وقد عثر على آثار فعالية موسيقية منظمة في معبد داجن في ماري ، كما عثر في القصر الملكي على مدرسة لتعليم الموسيقا.[62]

وقدمت الوثائق أيضاً / ومنها ما يعود للألف الثاني / طرائف من المعلومات عن حال الطقس عندما يتخذه الناس مدخلاً للحديث بينهم. ⊗كما كان في ماري أطباء ، وورد في أحد النصوص عن إيفاد طبيب ماهر بمعالجة التهاب الأذن إلى مكان يبعد عن ماري حوالي 100 كم. وأبانت التنقيبات عم وجود قطع طينية لها شكل أكباد عليها كتابات ذات قيمة سحرية ⊗⊗ ، بالإضافة إلى وجود بيطريين وحرفيين وقواد جيش وعرّافين.

ونعتقد أنه في ماري ولا سيما في فترة ازدهارها في منتصف الألف الثالث ، كان ثمة خدمة عسكرية فقد أشارت وثائق الألف الثاني المبكرة إلى وجود هذه الخدمة ، حيث كان الملك يرسل الدعوة للناس للالتحاق بالخدمة العسكرية وكل من يتهرب يتعرض لعقوبة " الخازوق".

ومن طرائف الأمور أيضاً ، ما ذكره الباحث حميدو حمادة / 2002 / ، من أن الرقم المسمارية التي كان يبطل مفعولها كانت توضع تحت أساسات الجدران كنوع من التقدير والاحترام لعالم الكتابة. وتشير الوثائق إلى وجود ورشات تصنيع العطور والبيرة ومستودعات للثلج في القصور لتخزين النبيذ. والجدير ذكره هنا هو أن المرأة المتزوجة في ماري كانت تضع غطاء على الرأس في تفريق عن غير المتزوجة.

وفي مجال الحياة الزراعية ، كان الريّ في ماري يتم في شهري آب وأيلول ، حيث كان يجري بطرق صناعية عبر الجداول والأقنية ، أما الحصاد فيتم في شهري نيسان وأيار ، حيث يتزامن هذا مع بدء فيضان نهر الفرات. وتشير الدراسات إلى أن متوسط عدد سكان المدن الكبرى في الألف الثالث بلغوا حوالي 20 ألفاً ، أما أوروك فقد بلغ 40 ألفاً ، وهذا مقارنة مع مساحتها.[٦٣] ونعتقد أن سكان مدينة ماري في الألف الثالث بلغوا حوالي 20 ألفاً حيث أن قطرها بلغ حوالي 2 كم كما مدينة نيبور. ومنذ عصر ماري المبكر ظهر العدد مئة / MIAT / في نصوص ماري ، ومع بداية الألف الثاني يظهر فيها مئة وألف / ميات وليم /.[٦٤]

وفي مجال التأريخ ، كان اسم الشهر ورقم السنة الملكية يستخدم في ماري وإبلا وموقع أبو صلابيخ ، وقد ظهرت بعض أسماء الأشهر في تقويم ماري وأبو صلابيخ.

ويشير الباحث شاربان إلى أنه أمكن بواسطة نصوص ماري تحديد ترتيب الشهور في تقويم إبلا بشكل صحيح من خلال خمسين رقيماً تعود إلى حوالي منتصف الألف الثالث قبل الميلاد.[65]

⊗ حميدو حمادة -٢٠٠٢

⊗⊗سوف نناقش طقس قراءة الأكباد الحيوانية في الحياة الاعتقادية للألف الثاني قبل الميلاد.

وفي وثيقة حقوقية المضمون تعود إلى فترة مبكرة من تاريخ ماري ، يشير الباحث جان ماري دوران إلى احتواء الوثيقة على أسماء سومرية وأكادية تختص بأشخاص ، بما يعطي دليلاً على طبيعة التفاعل والتمازج الاجتماعي في ماري. وقدمت هذه الوثيقة على أن المرأة في ماري كانت تحوز على ملكية خاصة منذ نهاية الألف الثالث ، إن لم يكن قبل ذلك.(66)

وإن كانت وثائق الألف الثاني قد قدمت معطيات عن الحياة الزراعية فإن الذي نعتقده أن هذا ينسحب على عالم الألف الثالث ، حيث كان ثمة نظام يطلق عليه " الايلكو " ILKU ، ويعني " يخدم أو يؤدي الخدمة " ، حيث كانت الأراضي التابعة للقصر تُعطى للأشخاص الراغبين من أجل استثمارها واستغلالها مقابل تأدية خدمات وضرائب للدولة ، وقد عرف هذا النظام في الألف الثاني في منطقة تمتد من جنوبي بلاد بابل وماري والآلاخ ونوزي وأوغاريت وغيرها. ⊗

أيضاً تقدم المعطيات العامة على أن سعر النبيذ في ماري كان أغلى عشر مرات من سعر القمح وأقل مرتين من سعر الزيت. وفي الإجراءات والأنظمة التجارية تقدم معطيات الألف الثاني جملة من المعلومات التي باعتقادنا تنسحب على عالم الألف الثالث ولاسيما في جذورها وأساساتها. فمثلاً في اجراءات نقل البضائع والقوافل بين ماري وحلب ، كان على تاجر ماري أن يعتمد على تاجر حلب فيما يخص اجراءات تفريغ ونقل بضائعه في إيمار / حيث كانت إيمار تتبع لفاعلية حلب السياسية / ، وعلى هذا فالتاجر الحلبي كان يعتمد على تاجر ماري في نفس الإجراءات في مدينة توتول / التابعة لفاعلية ماري /.

وتشير المعطيات بشكل عام إلى أن السفن الحاملة للبضائع كانت تخضع في ماري لدفع الرسوم والضرائب ، وأي تهرّب يدفع سلطة ماري إلى مصادرة البضائع وحجز السفينة ، والطريف أن هذا الإجراء يدفع مدينة السفينة المحتجزة إلى اتباع نفس الاسلوب مع السفن في ماري. أما مبلغ الرسوم فكان يحدد بحسب طبيعة البضائع ونوعها ونوعيتها.(67)

وفي مجال لغة ماري في الألف الثالث ، فقد أشار شاربان استناداً إلى نصوص ماري في الألف الثالث ق.م أن لغة ماري تتكون من لهجة مارية مع السومرية التصويرية.(68)

وقد أشار هنري ليميه إلى أن فنانو ماري أبدعوا في صناعة الحلي والمجوهرات حيث استخدموا الذهب والفضة والبرونز واللازورد والعقيق.. وغير ذلك. ⊗

ماري وإبلا في الألف الثالث قبل الميلاد

لعلنا في دراستنا لطبيعة العلاقات بين ماري وإبلا في الألف الثالث ، نكون أمام معايير عدة ، منها ، أن وثائق إبلا في الألف الثالث / في نصفه الثاني / قدمت معلومات مهمة عن ماري وأحوالها وحتى حياتها في كافة المناحي.

وأن مقاربتنا هذه لا تأخذ صفة الانتقاء بقدر ما أن العلاقة بين هاتين المملكتين في هذه الفترة ، تشهد على وجود نوع من دورة حياة حضارية واحدة في كافة المجالات.

ولعل العلاقة هذه تشكّل محوراً مهماً في طبيعة العلاقات المدينية بين مدن المشرق العربي آنذاك وعلى هذا ينبغي النظر إلى العلاقة كجزء من حركة التاريخ الكامل في المشرق ، لأنها تتممه أولاً ، وفاعلة فيه ثانياً. يقول هورست كلنيفل: " لقد كان لسورية تأثيرها وجاذبيتها من الناحية الاقتصادية ، فقد ألّفت جزءاً من الهلال الخصيب بسهولها الواسعة التي كانت تجذب المزارعين بظروفها الجوية الجيدة وتربتها الخصبة وأمطارها. وكان هذا الحال بخاصة في شمال سورية ووسطها"(69)

وقد قدّمت كشوفات إبلا العائدة لسويات الألف الثالث قبل الميلاد عن وجود علاقات بين إبلا ومواقع الجنوب الرافدي من ناحية ، ومع مصر من الناحية الأخرى. والذي يبدو أن تلك العلاقات كانت تتم كلياً أو جزئياً عبر مراكز أخرى مثل ماري وجُبيل. وبالعودة إلى معالم نشوء المدينتين ، فإن كانت ماري تعود في تأسيسها إلى بداية الألف الثالث ، فإن إبلا بما وصلت إليه من ازدهار وتطور في منتصف الألف الثالث ، يستند بقوة إلى تراكم حضاري ، تاريخي يعود في بدايته إلى الألف الرابع قبل الميلاد.

وهنا تجدرالإشارة إلى وجود عمق في الاتصالات والعلاقات الثقافية بشكل مباشر وغير مباشر ، بين إبلا وماري في الجناح الشامي مع موقعي كيش وأبو صلابيخ في الجناح الرافدي وذلك في الألف الثالث. مع النظر إلى أن علاقات ماري وإبلا لم تخرج في عمقها السياسي عن علاقات دول .مدن ذات مصالح ، ايجابية حيناً وسلبية حيناً آخر ، وهذا ما يفسر تذبذب العلاقات بين المدينتين / المملكتين / ، والذي يبدو أنه ومع منتصف الألف الثالث حُسمت علاقتهما لجهة المصالح الإيجابية وهذا ما انعكس في ازدهار المدينتين.

وتشير المعطيات إلى أنه في فترة حكم ايكوشار وحيدار في ماري ، هدأت فاعلية ماري وبدأت المدينتان تنظمان علاقتهما بشكل وثيق ومدروس ضمن مسار وحدة حياة اجتماعية .اقتصادية .ثقافية. بحيث ازدهرت التجارة بينهما وتم تنظيم معاهدات سهلّت تنّقل التجار من وإلى ماري وإبلا ، وإلى مدن أخرى مثل كيش في الرافدين ، وقدمت الوثائق معلومات عن انتقال حرفيين ونساجين وصنّاع أثاث بين المدينتين.(70)

ولعل مقاربة الحدود السياسية لكلا المملكتين توضح مبلغ التداخل والاحتكاك والذي ساهم بدوره في خلق التجاذب والتنابذ بينهما. ففي النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد ، امتدت حدود مملكة إبلا من منطقة الفرات الأوسط في الشرق وحتى سواحل البحر المتوسط في الغرب ، ومن سهول حمص في الجنوب وحتى جبال طوروس في الشمال. ويعتقد أن نفوذها ربما وصل إلى جاسور في الرافدين. أما مملكة ماري ، فلا يمكن إلى حد دقيق تحديد حدودها السياسية ، كونها كانت خاضعة للتجاذبات من مد وجزر تبعاً لحركة التاريخ آنذاك. غير أن الباحث ألفونسو آركي يشير إلى أن نفوذها في الألف الثالث ، امتد حتى كركوك في فترة حكم إبلول إيل ، ومنطقة كوموكينا في الأناضول ، كما أن إبلا دفعت الجزية لماري أثناء حكم هذا الملك.(71)

وفي فترة حكم اشتوب شار في ماري ، خضعت إيمار لفاعلية ماري ، حيث كانت إيمار مدينة مهمة كونها تشكّل ميناء مهماً على الفرات تنتهي إليه عدة طرق تجارية. وكانت دوماً تقع تحت سلطة الفاعلية الأقوى لمدن ماري أو إبلا أو حلب أو كركميش.

⊗ انظر عيد مرعي .ملكية الأرض في عهد حمورابي .دراسات تاريخية 35 .36 . 1990 .دمشق

⊗ فيصل عبد الله .دراسات تاريخية .مرجع سابق .

وكون الواقع الاقتصادي .التجاري فرض نفسه كرائز أساسي في العلاقات بين المملكتين ، فقد أشرنا سابقاً إلى أن طريق اللازورد والمواد الثمينة مثل العقيق والذي كان ينطلق من أفغانستان ووادي السند وينتهي بمصر ، كان يعبر مدناً مشرقية منها ماري وإبلا ، وهذا ما درَّ أرباحاً طائلة على المدينتين ، وفضل ذلك يعود إلى نهر الفرات الذي كما قلنا شكّل عصب التجارة آنذاك بين الشرق الأقصى وما بعد المشرق العربي غرباً.

وقد أشارت إبلا في نصوصها ، إلى أن ماري كانت تشكّل مفتاح السيطرة على التجارة النهرية الفراتية. وأبانت كذلك عن وجود كتّاب شباب من ماري سوف يأتون إلى إبلا. وأن ثمة استاذاً للرياضيات قادم من مدينة كيش إلى إبلا لغاية التعليم ، وأشارت نصوص موقع أبو صلابيخ الرافدي إلى كتّاب أكاديين.

وتحفل وثائق إبلا أيضاً بمعلومات عن ريادتها في صناعة الأنسجة ومن ثم تصديرها إلى مدن كثيرة ، وبينت أن ماري كانت ترفدها بالنساجين والحرفين. فقد كشفت وثائق إبلا عن قدوم نساجين إلى إبلا من ماري بالإضافة إلى تسعة حجارين ونجارين وحدادين. وكذلك عن وجود مغنين صغار ومغنين كبار من ماري في إبلا ، لا بل أشارت إحدى الوثائق إلى حصول أو استلام مغن صغير من ماري على 46 ثوباً من إبلا.

وقد نقلت إبلا الأخشاب من جبال الأمانوس وسلسلة الجبال الساحلية إلى ماري وكذلك النبيذ والشعير والمنسوجات والمفروشات وبالمقابل ، كانت ماري تنقل الأحجار الكريمة / لازورد .عقيق /.

كما أن أحد النصوص يشير إلى وصول 1028 كيلو غراماً من الفضة و 63 كيلو غراماً من الذهب من ملك ماري إبلول إيل وشيوخ ماري إلى إبلا. بالإضافة إلى نصوص تتحدث عن إرسال كميات من الفضة والذهب من إبلا إلى ماري عبر تجار للحصول على مواد من مدينة ماري.⊗

أيضاً ثمة ذكر لنقل لازورد من ماري إلى إبلا والعكس كذلك ، وثمة ثوبان ولازورد تمّ إرسالهم من قبل ملك إبلا إلى ملك ماري. ويبدو أنه كانت تحصل صفقات تجارية بين تجار المدينتين ، فقد أشارت نصوص إبلا إلى صفقة تجارية بين ماري وإبلا أساسها مقايضة الأحجار الكريمة واللازورد والعقيق وغيرها بأنسجة إبلوية. وثمة نص يتحدث عن 46 ثوباً لمغنيين كبيرين من ماري و 42 ثوباً إلى 21 مغنياً من ماري. وتشير المعطيات إلى أن تجار ماري كانوا يعملون في إبلا بأعداد كبيرة وقد اتخذوا من بعض المدن مركزاً لتجارتهم. ويبدو أن حيوية تجار ماري وهذا يعود لإشراطات المدينة نفسها ، أدت إلى تفعيل هذا النشاط التجاري بين المدينتين ، حيث لعبوا دوراً أساسياً في تجارة إبلا ، وهذا ما أفسح المجال للتجارة الإبلوية من الوصول إلى المدن الرافدية والهضبة الايرانية وما بعدها.

وقد أشارت وثيقة إبلوية إلى حصول عملية تجارية عبر المقايضة بين إبلا وماري ، حيث قايضت الأولى مادة الفضة بمادة اللازورد من ماري وذلك بنسبة واحد إلى واحد ، رغم أن اللازورد كانت قيمته تفوق قيمة الفضة بكثير. أيضاً تشير إحدى وثائق إبلا إلى انتقال معلمي الموسيقا من ماري / حوالي 23 عازفاً مع مديرهم / مع آلاتهم إلى إبلا وكذلك انتقال معلّمين وكتاب.

وفي موازاة كل هذا ، حفلت الحياة الثقافية والفنية بين المدينتين / المملكتين / بأوجه تفاعل لا بل تماهٍ نجد آثاره في فن العمارة وفنون النحت المختلفة. فالباحث أبو عساف يشير إلى أن مدرسة إبلا الفنية ومنذ منتصف الألف الثالث قبل الميلاد ، كانت على صلة وثيقة بمدينة ماري وبالجناح الشرقي للهلال الخصيب / أبو عساف 1990 /.

بناء على كل هذا يمكننا رصد بضع استنتاجات تختص بطبيعة العلاقات بين ماري وإبلا وكذلك في ايضاح طبيعة الحياة اليومية ومجرياتها ونظامها في ماري اعتماداً على الوثائق الإبلوية:

أولاً: أن هذه الحركة التجارية النشيطة والمميزة لتجار ماري ، تجعلنا أمام تأكيد أن هناك جمعيات أو هيئات تجارية عريقة في مدينة ماري كانت تنظم مجريات الحياة التجارية وتُسهلها ، وأن هذه الحركة التجارية ، لها ارتباط عميق بحركة الملاحة النهرية التجارية والتي بدورها كانت تسير وفق منظومة مجتمعية إدارية فعلّتها وأدارت أمورها.

ثانياً: أن تفاعل المجتمع في ماري ، ديمغرافياً واجتماعياً ، ثم تفاعله الإيجابي مع الطبيعة وممكناتها ، ساهم في خلق اقتصاد مجتمعي نافذ وقوي أدى فيما أداه إلى تفعيل لدور مملكة ماري الحضاري وهذا ما سنجده في ماري العمورية مع الألف الثاني قبل الميلاد.

ثالثاً: أن وجود فعاليات ثقافية / أدبية .موسيقية .تعليمية / ، وثّقتها نصوص إبلا ، تجعلنا أمام تثبيت أن مجتمع ماري في الألف الثالث ، كان مجتمع ذو بنية مؤسساتية فاعلة. فأن يأتي أحد معلمي الموسيقا ومعه 23 متمرناً إلى إبلا ومع آلاتهم ، فإن هذا يعطي انطباعاً أننا أمام نشاط مؤسساتي في هذه الحقبة المبكرة من التاريخ الجلي.

وهذا ما يشير إلى مبلغ التطور الذي بلغته الحياة الروحية في مدن المشرق ، مُعَّبراً عنه في مدينة ماري وإبلا. وهنا تستوقفنا مقولة الباحث مارجرون من أن " نهر الفرات سمح لسورية أن تسرع بعملية التمدن ، ذلك أنه يسّر لها التطور من خلال العلاقات التجارية انطلاقاً من البلاد السومرية في الألف الرابع قبل الميلاد ، وهو دائماً ، وللأسباب ذاتها الذي ضَمِنَ تطور سورية الداخلية في الألف الثالث قبل الميلاد". مع الإشارة هنا إلى أن نهر الفرات لم يتحول إلى حدود فاصلة بين جناحي المشرق العربي إلا مع الاحتلال الروماني لبلاد الشام في القرن الأول قبل الميلاد.

بهذا نكون قد قدمنا مقاربة لواقع مدينة ماري ومملكتها في الألف الثالث قبل الميلاد ، وعلى مدى حوالي ألف سنة ، وإن كانت وثائقها في هذه الفترة لا ترضي البحث التاريخي ، غير أن تواصل الحضارة في المشرق العربي بين المدن كافة وفي كلا الجناحين استطاع أن يضيء بشكل بانورامي على حياة هذه المدينة/المملكة في الألف الثالث.

وبالاتجاه نحو ماري العمورية مع الألف الثاني قبل الميلاد ، سنصبح أمام كمّ هائل من الوثائق التي تضيء على مناحي الحياة كافة في مملكة ماري لنحو 150 عاماً ، حتى سقوطها تحت ضربات حمورابي البابلي. ولعلنا نشارك الباحث كاي كولماير قوله في " أن المأثورات المادية التي تركها سكان إبلا أقل تأثراً بكثير بحضارة بلاد الرافدين من تلك التي خلّفتها ماري ".⊗

⊗ للمزيد: انظر عيد مرعي .إبلا .دار الأبجدية .دمشق .مصدر سابق.
ودراسة علي أبو عساف .إبلا وماري .مجلة البناء اللبنانية .مصدر سابق
وقاسم طويل .إبلا .مجموعة باحثين .دمشق 1984

⊗ كاي كولماير .الآثار السورية 1982 .LAND DES BAAL

الهوامش

1- EXPOSITION SYRO — EUROPE'ENNE D'AERCHE'OLOGIE MARI- MARGUERON - مرجع سابق.

٢- د. فيصل عبد الله .قراءة في خمسة مجلدات عن ماري .دراسات تاريخية .37 .38.

٣- وثائق الآثار السورية .مارجرون " الفرات الأوسط في عصر البرونز " وزارة الثقافة السورية 2002.

٤- المرجع السابق .التغييرات البيئية واستثمار الأراضي ونظم الاستيطان . أوليفية روو.

٥- المساهمة الفرنسية في دراسة الآثار السورية . I.F.A.P.O 1989. دمشق. جيير .ج.إ. مونشابير .لستكشاف وادي الفرات الأوسط.

٦- المرجع السابق .مارجرون .ماري.

٧- د. علي أبو عساف .آثار الممالك القديمة في سورية .وزارة الثقافة السورية 1988.

8- A. PARROT: MARI; CAPITALE FABULESE. PAYOT . 1974 PARIS

٩- مارك لوبو - طرق الاتصال في بلاد الرافدين العليا في الألف الثالث ق.م . الحوليات الأثرية السورية مجلد 43.

١٠-ألفرد هالدار .العموريين .ت .شوقي شعث .دار الأبجدية .دمشق 1993

١١- مارك لوبو .مصدر سابق.

١٢- د. علي أبو عساف .مصدر سابق.

١٣- د. علي أبو عساف .مصدر سابق.

١٤- ألفرد هالدار .مرجع سابق.

١٥- المرجع السابق.

١٦- د. فيصل عبد الله .مرجع سابق.

١٧- أرنولد توينبي .تاريخ البشرية. 2. نقولا زيادة .دار الأهلية .بيروت 1984 .

١٨- المرجع السابق.

١٩- جورجيو بوتشيلاتي ترقا .كتاب أضواء جديدة على تاريخ آثار بلاد الشام . مطبعة عكرمة 1989 .ت .قاسم طوير .دمشق

٢٠- الفونسو آركي .من دراسة د. علي أبو عساف .إبلا ماري قطبان في دورة حضارية واحدة .مجلة البناء اللبنانية العدد 732 1990/4/21

٢١- علي أبو عساف .فنون الممالك القديمة في سورية .دار شمأل .دمشق 1993.

٢٢- جان كلود مارجرون .وثائق الآثار السورية .مرجع سابق.

23-. JEAN MARGUERON; EXPOSITION SYRO — EUROPE'ENE مرجع سابق

٢٤- علي أبو عساف. طريق الحرير والطرق التجارية الأقدم .دراسات تاريخية 39.40.1991 .دمشق

٢٥- هورست كلينغل [تاريخ سورية السياسي] 3000 .300 ق.م ت .سيف الدين دياب. دار المتنبي .دمشق 1998.

٢٦- عيد مرعي .إبلا .دار الأبجدية .دمشق .١٩٩٦

٢٧- هورست كلينغل. الفرات الأوسط والتجارة الدولية خلال العهد البابلي القديم .الحوليات الأثرية السورية 34 .

٢٨- هورست كلينغل. " التجارة في بلدان المشرق القديم والتفاعل مع جزيرة كريت في الألف الثالث ق.م .أضواء جديدة في تاريخ وآثار بلاد الشام . مرجع سابق.

٢٩- محمد حرب فرزات. العلاقات الحضارية بين بلاد الخليج العربي وشبه القارة الهندية حتى الألف الأول قبل الميلاد .دراسات تاريخية .العدد 37 . 38.1990 دمشق . جامعة دمشق.

٣٠- JEAN MARGUERON مصدر سابق.

٣١- توفيق سليمان .دراسات في حضارات غرب آسية القديمة .دار دمشق.

٣٢- المرجع السابق.

٣٣- د. محمد حرب فرزات .د. عيد مرعي .دول وحضارات في الشرق العربي القديم .دار طلاس 1990 دمشق.

٣٤- هورست كلينغل .تاريخ سورية السياسي.

٣٥- أنطون مورتفات .تاريخ الشرق الأدنى القديم- ترجمة: توفيق سليمان — علي أبو عساف — قاسم طوير ١٩٦٧.

٣٦- توفيق سليمان .مرجع سابق.

٣٧- المرجع السابق.

٣٨- هورست كلينغل .تاريخ سورية السياسي .مرجع سابق.

٣٩- الحوليات الأثرية .34 .1983 .ماري واسهامها الحضاري .بشير زهدي.

٤٠- جان كلود مارجرون .مرجع سابق.

٤١- د. فيصل عبد الله .قراءة في خمسة مجلدات عن ماري .دراسات تاريخية .37 .38.

٤٢- مارجرون .مرجع سابق.

٤٣- د. فيصل عبد الله. إبلا وماري أقدم مثال على نمط زراعي متقدم .دراسات تاريخية 43 .44 .1992.

٤٤- الفرد هالدار .مرجع سابق.

٤٥- علي أبو عساف .بحث لم ينشر .ايمار وحوض الفرات الأوسط بين مملكتي إبلا وماري 1991.

٤٦- عيد مرعي .إبلا .مرجع سابق.

٤٧- هورست كلينغل .مرجع سابق.

٤٨- علي أبو عساف .مرجع سابق.

٤٩- المرجع السابق.

٥٠- علي أبو عساف .إبلا وماري قطبان في دورة حضارية واحدة .مجلة البناء .772 .1990/12/4

٥١- اندره بارو .مرجع سابق.

٥٢- علي أبو عساف .آثار الممالك القديمة .مرجع سابق.

٥٣- اندره بارو .سومر .ت: عيسى سلمان — سليم طه التكريتي — ١٩٧٧ بغداد.

٥٤- علي أبو عساف .فنون الممالك .مرجع سابق.

٥٥- اندره بارو .ماري .مرجع سابق.

٥٦- علي أبو عساف .إبلا وماري .مرجع سابق.

٥٧- الفرد هالدار .مرجع سابق.

٥٨- علي أبو عساف — دراسة غير منشورة — مرجع سابق.

٥٩- علي أبو عساف .مرجع سابق .دراسة غير منشورة.

٦٠- فيصل عبد الله .دراسات تاريخية 37 .38 .قراءة في خمس مجلدات عن ماري.

٦١- المرجع السابق.

٦٢- فيصل عبد الله .مرجع سابق .ومحمد حرب فرزات وعيد مرعي .مرجع سابق.

٦٣- توفيق سليمان .دراسات .مرجع سابق.

٦٤- عيد مرعي .مرجع سابق.

٦٥- المساهمة الفرنسية — مرجع سابق.

٦٦- فيصل عبد الله .مرجع سابق.

٦٧- علي أبو عساف .ماري وإبلا .مرجع سابق.

٦٨- فيصل عبد الله .مرجع سابق.

٦٩- هورست كلينغل .تاريخ سورية السياسي .مرجع سابق.

٧٠- علي أبو عساف .مرجع سابق.

٧١- علي أبو عساف .إبلا وماري .مرجع سابق.